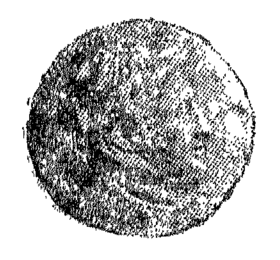
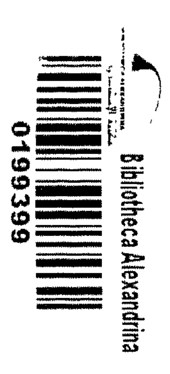
مطبوعات جمعية الآثار بالأسكندرية

دراسات أثرية وتاريخية

٣





١٩٦٩

مطبعة اسكندرية ـ ش محرم باشا ت : ٣٢٩٦١

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د.رشيد سالم الناضورى
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

يمكن الحصول على مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية من مقرها
٦ شارع محمود مختار - اسكندرية (تليفون ٢٠٦٥٠)

مطبوعات جمعية الآثار بالاسكندرية

دراسات أثرية وتاريخية

٣



المحتويات :

١٩٦٩

مطبعة اسكندرية – ش محرم بك ت : ٣٣٩٦١



مدينة مرسـيـة

موطن الشيخ الزاهد العارف بالله القطب الأكبر

« أبو العباس المرسى »

(محاضرة ألقيت بجمعية الآثار بالاسكندرية فى ١٣ مارس ١٩٦٧)

للدكتور السيد عبد العزيز سالم

سيداتى سادتى :

عندما تفضل زميلى الدكتور داود عبـده داود بدعوتى للحديث فى جمعيتكم الموقرة عن موضوع أختاره ، له صلة بحياة قطب الاسكندرية الأعظم ، وعلمها الأكبر الذى أصبح اسمه يقترن باسمها ، سيدى أبى العباس المرسى ، وذلك بمناسبة احتفال مدينـة الاسكندرية بذكرى مرور سبعمائة عام على وفاته ، لم أتردد فى أن أسهم بحديث الليلة فى هـذه الذكرى العزيزة ، وإن كان ذلك قد جاء فى ختام هذه الاحتفالات . ولما كانت حياة شيخنا أبى العباس المرسى وآراؤه هى محور العدد الأعظم من الدراسات والبحوث التى صدرت حديثاً عنه ، فقد رأيت أن يكون موضوع حديثنا الليلة التعريف بمدينة مرسـية الإسلامية ودراسة تاريخها الحافل بالأحداث مع الاهتمام بتصوير الفترة التى سبقت رحيل أسرة أبى العباس نهائياً من أرض مرسية ، واختياره لثغر الاسكندرية المحروس منزلا وموطناً .

والشيخ الزاهد أبو العباس المرسى هو أبو العباس أحمد بن عمر بن محمد الخزرجى الأنصارى المرسى [١] قطب زمانه ، ورأس أصحاب الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، ولد فى مدينة مرسية إحدى كبار مدن شرق الأندلس فى سنة ٦١٦ هـ [٢] (١٢١٩ م) ، وفى هـذه المدينـة التى كانت تعرف بمصر الأندلس قضى أبو العباس طفولته وصباه ، ثم قدر له أن يرحل عنها مع أسرته نهائياً فى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م)

وقد بلغ من العمر أربعاً وعشرين سنة ، عندما اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى إسبانيا ، وقبل أن يشهد سقوط مرسية فى أيدى القشتاليين الذى تم بعد عام واحد من رحيله عنها .

وفقد أبو العباس والديه اللذين ماتا غريقين فى البحر أمام ساحل بونة من إفريقية ، فلما وصل إلى مدينة تونس قدر له أن يلتقى بأب روحى كان له أعظم الأثر فى حياته المستقبلة ، هو أستاذه القطب الصوفى الكبير الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، الذى اصطفاه دون غيره حفياً وتلميذاً ثم خليفة من بعده ، وقد لازمه أبو العباس ورافقه فى رحلته إلى الاسكندرية فى سنة ٦٤٢ هـ فى عصر السلطان الملك الكامل محمد بن العادل بن أيوب . ولم يكن غريباً أن يختار الشيخان هذا الثغر السكندرى دون غيره من مدن المغرب ومصر منزلا ، فطالما اجتذبت الاسكندرية رجال العلم من أهل الأندلس بوجه خاص منذ أن اشتدت حركة الاسترداد المسيحى فى اسبانيا الاسلامية بعد سقوط طليطلة فى يد الفونسو ملك قشتالة فى سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) ، وإليها كان الأتقياء والمجاهدون المغاربة يقبلون وينزلون ، باعتبارها دار رباط [٣] ومركزاً رئيسياً للجهاد ، ولعل هؤلاء المهاجرين الأندلسيين والمغاربة كانوا يؤثرون استيطانها والنزول فيها إما لتألق الحياة العلميــة فى سمائها ونشاط الحركة الصوفية بوجه خاص ، أو لتأصل التقاليد الأندلسية المغربية فى الاسكندرية منذ قيام الدولة الفاطمية ، أو لأنها كانت مرحلة متوسطة من مراحل الطريق إلى الحج بين المغرب والأندلس وبين الحجاز ، أو لوجود دار المغاربة ومدرســة أقيمت فى عصر صلاح الدين المرابطة المغاربة الذين لم يترددوا فى الاشاركة بأوفى نصيب فى الجهاد ضد الصليبيين فى الشام ومصر إلى جانب المصريين والشاميين [٤] .

لكل هذه العوامل مجتمعة ، فلقد نزل الاسكندرية واستوطنها عدد كبير من شيوخ الأندلس والمغرب نخص بالذكر منهم : العالم أبا الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن نادر الميورقى ، وأبا عبد الله محمد بن مسلم بن محمد القرشى المازرى الصقلى [٥] ، وأبا بكر محمد الطرطوشى المعروف بابن أبى رندقة [٦] ، وعبد الرحمن ابن أبى بكر بن عتيق بن خلف الصقلى المعروف بابن الفحام ، وكان من شيوخ القراء

بالاسكندرية [٧] ، وأبا القاسم بن مخلوف المغربى الاسكندرى ، أحد كبار أئمة المالكية (ت ٥٢٣ هـ) [٨] ، وأبا العباس أحمد بن عمر بن ابراهيم الأنصارى القرطبى الفقيه المحدث (ت ٥٥٦ هـ) [٩] ، وأبا عبد الله محمد بن ابراهيم بن الجرح التلمسانى نزيل الاسكندرية (ت ٦٥٦ هـ) وكان من صلحاء العلماء فى الحديث [١٠] ، والحسن بن خلف بن عبد الله بن بليمة القيروانى نزيل الاسكندرية (ت ٥١٤هـ) وكان عالماً فى القراءات [١١] ، واليسع بن حزم الغافقى الأندلسى الجيانى نزيل الاسكندرية فى عصر صلاح الدين (ت ٥٧٥ هـ) [١٢] ، والقاسم بن خيرة بن خلف بن أحمد الشاطبى المقرى (ت ٥٥٥ هـ) [١٣] ، وأبا عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن زكريا المعافرى البلنسى المقرىء [١٤] ، وأبا الحسن على بن محمد بن يوسف بن عفيفى الخزرجى الساعدى الغرناطى [١٥] ، وأبا عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة المرسى [١٦] (ت ٥٥٥ هـ) ، ونختتم هذه الأمثلة بالفقيه الزاهد نزيل الاسكندرية أبى عبد الله بن محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى (ت ٦٧٢ هـ) [١٧] . وقد ترك اثنان من هؤلاء الوافدين اسميهما على حيين من أحياء الاسكندرية الحاضرة هما حى الطرطوشى نسبة إلى ضريح الطرطوشى المقام بالقرب من الباب الأخضر [١٨] ، وحى الشاطبى نسبة إلى رباط سوار الذى كان يقع بظاهر الاسكندرية من الجهة الشمالية الشرقية حيث منطقة الشاطبى حالياً [١٩] .

* * *

أما مدينة مرسية التى ينسب إليها شيخنا الكبير أبو العباس المرسى ، موضوع حديث الليلة ، والتى كانت حاضرة شرق الأندلس فى العصر الاسلامى ، فهى مدينة إسلامية محدثة ، أى أقيمت فى العصر الاسلامى ، أسسها الأمير الأموى عبد الرحمن الأوسط فى ربيع الأول من سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) لتقوم مقام مدينة إله Ello (أو إيه حسب ما سماها به العذرى) [٢٠] الحاضرة القديمة لكورة تدمير ، التى أمر عبد الرحمن عامله جابر بن لبيد بتهديمها بسبب الفتنة التى قامت فيها بين القيسية واليمنية والتى استمرت قائمة حتى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨م) . وكورة تدمير المذكورة إنما سميت كذلك نسبة الى تدمير بن عبدوش

القوطى Teodomiro b. Ergobado الذى كان يتولى إمارتها من قبل ملك القوط (٢١) ، بخلاف ما فسره بعض الباحثين بأن عبد الرحمن الأوسط سماها تدمير باسم تدمر الشام (٢٢) ، إذ أن تدمير كان يطلق على إقليم مرسية عند الفتح الاسلامى للأندلس فى سنة ٩١ هـ ، بينما لم يطلق اسم مرسية على المدينة التى حلت محل إله إلا فى عهد عبد الرحمن الأوسط . وكانت كورة تدمير تضم فى زمن الفتح الاسلامى عدداً من المدن منها : أوريولة Orihuela ، وبلتنة Baltana ، ولقنت Alicante ، ومولة Mula ، وبلانة Villena ، ولورقة Lorca ، وإله Ello (٢٣).

وقصة فتح المسلمين لكورة تدمير فى ولاية عبد العزيز بن موسى بن نصير بعد سنة ٩٤ هـ (٢٤) فيما روته المصادر العربية ، قصة شيقة تتضمن من عناصر المفاجأة والتشويق ما جعلها أقرب إلى الرواية القصصية ، فلقد سار عبد العزيز بقواته إلى فحص أوريولة ، وهزم تدمير وأصحابه فى قرطاجنة ، فرضة أوريولة ، ووضع المسلمون فيهم السيف ، ونجا تدمير مع رهط من أصحابه وتحصنوا بأوريولة ، وكانت هذه المدينة يومئذ غاية فى الحصانة والمنعة ، وكان تدمير مجرباً بصيراً ذا هيبة ، فلما رأى قلة أصحابه ، أمر النساء فنشرن شعورهن وأمسكن القصب بأيديهن وظهرن على ممشى السور فى زى القتال متشبهات بالرجال ، فكره المسلمون مراسة لكثرة ما عاينوه على السور ، وآثروا أن يهادنوه ، ففاوضهم على خير ما اشتهاه من شروط ، وعندما دخل المسلمون المدينة لم يلقوا فيها جيشاً للدفاع كما كانوا يعتقدون ، فندموا على تسرعهم فى عقد الصلح ، ولكنهم نفذوا شروط الصلح التى وضعها تدمير (٢٥).

وعندما اشتد الصراع فى الأندلس بين العصبيتين القيسية واليمنية نتيجة للحروب الأهلية التى قامت بين البلديين فى الأندلس وجند الشام ومصر الوافدين اليها ، وأمر الخليفة الاموى هشام بن عبد الملك بتولية أبى الخطار الحسام بن ضرار الكلبى على الأندلس ليضع حداً لهذه الفتنة ، نظر أبو الخطار فى إبعاد جند الشام ومصر عن قرطبة ، وتوزيعهم على كور الأندلس ليقضى على عوامل الاضطراب ،

وراعى فى هذا التوزيع تشابه الكور التى ينزلون فيها مع مواطنهم الأصلية ، فأنزل جند دمشق بالبيرة للتشابه الكبير بين إلبيرة ودمشق ، وسمى إلبيرة دمشق ، وأنزل جند الأردن بكورة رية ومالقه وسماها الأردن ، وجند فلسطين بشذونة وسماها فلسطين ، وجند حمص بإشبيلية وسماها حمص ، وجند قنسرين بجيان وسماها قنسرين (٢٦) . أما جند مصر فقد اختار لهم كورة تدمير ، فسميت تدمير منذ ذلك الحين بمصر لكثرة شبهها بها ، ولأن لها أرضاً « يسيح عليها نهر فى وقت مخصوص من السنة ، ثم ينضب عنها ، فتزرع كما تزرع أرض مصر » (٢٧) ، ونهر تدمير المعروف بالنهر الأبيض أو وادى شقورة فسم الوادى الكبير يتفرع قرب مصبه إلى دلتا ذات شعبتين أو جدولين ، كدلتا مصر على نحو مصغر ، أحدهما يسقى قبلى مرسية ، والثانى يسقى جوفيها (٢٨) .

وأصبحت مرسية منذ تولى جابر بن مالك بن لبيد تخطيطها وإنشاءها فى زمن الأمير عبد الرحمن الأوسط منزلا للولاية ، وقاعدة لكورة تدمير ، وداراً ومقراً للقواد (٢٩) فى ولاية كل من الأميرين عبد الرحمن الأوسط وابنه محمد ، فلما ضعفت السلطة المركزية بقرطبة فى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، واشتعلت نار الثورة فى سائر أنحاء الأندلس ، استقل ديسم بن اسحاق المولد بمرسية ولورقة وما يليهما من كورة تدمير (٣٠) ، ولم تدخل مرسية فى فلك الامارة بقرطبة إلا بعد أن أرسل الأمير عبد الرحمن بن محمد الذى تلقب فيما بعد بالناصر لدين الله ، وزيره اسحاق بن محمد القرشى على رأس جيش كثيف فى سنة ٣٠٤ هـ ، فانتزعها من الثوار ، كما افتتح حصن أوريولة قاعدة كورة تدمير وأمنع معاقلها وأقدمها (٣١) ، ثم استصلح القرشى أحوال أهل الكورة .

وازدهرت مرسية فى عصر الخلافة ، واتسع عمرانها وأصبحت فى عداد الحواضر الأندلسية الكبرى ، وكانت لها فرضتان أو مرسيان يطلان على البحر : أحدهما قرطاجنة الحلفاء وكان مرسى ترسو به السفن الكبيرة والصغيرة (٣٢) ، والآخر مرسى لقنت الذى يجوز منه التجار إلى إفريقية (٣٣) .

واتسعت مرسية ، وفاض عمرانها خارج أسوارها ، وأصبح لها ربض عامر

بالسكان تدور به الأسوار ، ويتصل بالمدينـــة عن طريق قنطرة من السفن ، وكان لتوافر مياهها أثر كبير فى كثرة بساتينها ، ووفرة فواكهها كالتين والكروم (٣٤) ، وظلت مرسية فى ازدهار مطرد حتى سقطت الدولة العامرية ، وأصبحت الخلافة محل أطماع الطامعين من أمراء المروانية ، وتمزقت وحدة الأندلس وقامت دويلات الطوائف ، فاختص رؤساء الصقالبة بشرق الأندلس ، فخضعت دانيـــة وأعمالها لمجاهد العامرى ، وخضعت شاطبـــة لنبيل ، وبلنسية لمصدوم ثم لمبارك ومظفر العامريين ، ثم المنصور أبى الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن شنجول بن المنصور محمد بن أبى عامر ، وطرطوشة للبيب العامرى ، والمرية لخيران ، أما مرسية فكانت من نصيب واصل (٣٥) ، ولكنها لم تلبث أن أصبحت من نصيب خيران الفتى العامرى الذى كان يتولى حكم مدينة المرية منذ حجابة المنصور محمد بن أبى عامر (٣٦) . فاتخذ خيران المرية قاعدة لدولته ، ولم يلبث أن ضم اليه قاصـــة أوريولة فى سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٤ م)(٣٧) ، ولم يمض عامان على ذلك حتى انتزع مرسية من صاحبها واصل الفتى ، ونازع بذلك الموفق أبى الحسن مجاهد الفتى العامرى صاحب دانية والجزائر الشرقية . وأدى اصطدام خـــيران بمجاهد العامرى وانهزامه أمامه إلى أن يدعو بالامارة لحفيد من أحفاد المنصور بن أبى عامر هو أبو عامر محمـــد بن المظفر عبد الملك ، فتنازل خيران عن مرســـية وأوريولة (٣٨) ، غير أن العلاقات بينهما لم تلبث أن تدهورت ، ففر خيران الى المرية فى ربيـــع الآخر سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) ، وتحرك من هناك إلى مرســـية محارباً لمحمد بن المظفر ، فما زال به حتى أخرجه منها فى ربيع الأول سنة ٤١٣ هـ (٣٩) (١٠٢٢ م) . وهكذا خضعت مرسية لخيران ، الذى ظل يقوم بحكمها من المرية حتى توفى فى جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، فخلفه على إمارتها عميـــد الدولة أبو القاسم الفتى زهير العامرى ، وأصبحت مرسية خاضعة لزهير يحكمها من قصبة المرية . فلما قتل زهير فى معركة قامت بينـــه وبين باديس بن حبوس الصنهاجى صاحب غرناطة ، بقرية الفنت الواقعـــة على بعد أربعة أميال من غرناطة فى شوال سنة ٤٢٩ هـ (٤٠) (١٠٢٧ م) ، واتصل نبأ موته بأهل مرسية ضبطوا مدينتهم ، وأســـندوا الرئاسة فيها إلى أبى بكر أحمد بن اسحق بن طاهر القيسى ، الذى ينتسب إلى بيت من أشرف

البيوتات العربية بمرسية وأرفعها ، ويرتفـــع نسبه إلى قيس عيلان (٤١) ، فاستقل بحكمها وإن كان فى الظاهر يعلن خضوعه للمنصور عبد العزيز صاحب بلنســـية . وكان ابن طاهر محبوباً بين أهل مرسية ، محباً للثقافة ، مشجعاً للعلوم ، فلما توفى فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) خلفه على إمارتها ابنه أبو عبد الرحمن محمد بن احمـد بن طاهر ، الذى خلع ولاءه للملك بالنســـية العامرى نهائياً ، مستغلا فى ذلك الموقف الحرج الذى كانت تجتازه هذه المملـكة عند توليه إمارة مرســـية (٤٢) ، ولـكن أبا عبد الرحمن لم يـكن يهمـل حساب ملوك الطوائف الآخرين ، وعلى الأخص المعتمد بن عبـاد ملك إشبيلية الطموح الذى حاول من قبـل أن يستولى على مرسية مستعيناً فى ذلك بريموندو بيرنجر الثانى صـاحب برشلونة (٤٣) وكان ابن طاهر من أهل العـلم والأدب ، انتجعه الشعراء وقصده الأدباء ، وكان ممن قصـــده الشاعر أبو بكر محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المهرى(٤٤) فى أيام خموله ، الذى سيسعى إلى خلعه من سلطانه ، وكان ابن طاهر أميراً عادلا فى أحكامه ، فرضى أهـــل مرسية بحـكمه ، وأجمعوا على محبته ، عدا فئة حسدته على ما ناله من محبـة فى قلوب رعيته ، فخاطبوا المعتمد بن عباد الايقاع به . وذكر ابن الآبار نقـلا عن ابن قاسم فى تاريخه أن ابن عمار هو الذى زور المعتمد أن أهل مرسية ، قد داخلوه وخاطبوه ، وأظهر لهم كتباً ذكر أنهم كتبوها إليه ، (٤٥) ، فوجه ابن عباد عسكراً من إشبيلية بقيـادة ابن عمار ، لغزو مرسية ، فلما وصل ابن عمار إلى قرطبة وكانت تابعـــة للمعتمد بن عباد ضم إلى عسكره خيالة قرطبـة . ثم تقدم إلى مرسية ، واجتاز فى طريقه إليهـا على حصن يقال له « حصن بلج » Vilche ، وضم إليه عامل هـذا الحصن واسمه عبـد الرحمن بن رشـــيق وفوده على عسكره ، ثم تمـكن ابن عمـار بمساعدة ابن رشـيق من انتزاع حصن مولة من بنى طاهر وكان هـذا الحصن من أهم حصـــون إمارة مرسية فمنه كانت تصـــل المؤن والأقوات إلى الحاضرة . وما إن وضع إبن عمار يده على مولة حتى ولى عليها إبن رشيق ، وترك معه جمـلة من الخيل وقفل عائداً إلى إشبيلية (٤٦) .

وما زال إبن رشيق يغادى مرسـية ويراوحها بالغارات ، وقد برح بهـا تـكرر

الحصار ، وأمضها انقطاع المواد بانخزال مولة عنها (٤٧) ، ويداخل أهلها فى عصيان ابن طاهر والخروج عليـــه ، ويمنيهم فى مقابل ذلك بالأمانى الكبـار ، حتى لان قيادهم ، ومالوا إلى الدخول فى طاعة إبن عبـــاد ، واتفق معهم على أن يفتحوا له أبواب مرسية عند قدومه إليهم من حصن مولة ، فلما وصـل ابن رشيق إلى ظاهر مرسـية قادماً من حصن مولة ، فتح له أهل مرسية أبوابها فدخل ابن رشـــيق فى عسكره وأنصاره ، وتم اعتقاله لابن طاهر ، فأخرج من داره إلى السجن وقيل اعتقله فى حصن منت أقوط (٤٨) (Monteagudo) وظل معتقلا بهـذا الحصن إلى أن ورد كتاب المعتمـد بإطلاق سراحه فلحق بأبى بكر بن عبد العزيز صـاحب بلنسية ، وقيـــل إن ابن طاهر نجح فى الافلات من معتقـله بإعانة ابن عبد العزيز المذكور وسعيه لتخليصه من سجنه (٤٩) .

ثم قدم ابن عمار إلى مرسية موفداً من المعتمـد بن عبـاد ليصبح أميراً عليها ، غير أنه طمع فى الانزواء والانفصال عن إشبيلية ، وسولت له نفسه أن يستقل بحكم مرسية ، فقعد بها مقعد الرؤساء ، واعتـــبر نفسه نداً لابن عباد ، واستخف بأهل مرسية ، واستعمل المعاصى حتى أبغضه النـاس (٥٠) . وذكر ابن بسـام أنه استعمل أراذل عبيده وخساسهم على الحصون وأقطعهم الضياع ، واستغرق أثنـاء ولايته فى الملذات ، فانتهز ابن رشيق فرصة انقطاعه إلى الشراب واللهو وأخذ يستبدل أولئك الأراذل ببنى إخوته وأخــواته ، حتى إذا ما تم له ذلك ، أغرى الأجنـاد بطلب أرزاقهم من ابن عمار ، وأثار عليه الناس ، ثم انتهز فرصـة خروج ابن عمار لتفقد بعض شــــؤون مرسية وحصونها ، فوثب على مرسـية الحاضرة ، واستولى عليها ، وامتنع بها ، ودعا فيها لابن عباد(٥١). أما ابن عمار فقد لجأ إلى أذفونش بن فرولند (أى الفونسو السادس ملك قشتالة)(٥٢) ، وكان ابن رشـــيق قد استمال أذفونش بألطافه وهداياه ، وغيره على ابن عمار ، فأساء هذا استقباله (٥٣) ، وعندئذ ولى ابن عمار وجهه نحو سرقسطة ، فلحق بالمقتدر بالله بن هود صاحبها (٤٣٨ - ٤٧٥ هـ)(٥٤) ثم وقع ابن عمار أخيراً فى يد المعتمد فنكبه ، وقتله بيده (٥٥) .

وظل ابن رشيق يحكم مرسية باسم المعتمد ، ثم بدأ يتحرر تدريجياً من تبعيته له

منذ أن تمكن المرابطون وجيوش الأندلس من الانتصار على جيوش الفونسو السادس فى موقعة الزلاقة (٥٦) ، وقد أخذ يتقرب إلى المرابطين ، حتى يعتضد بهم عندما يعلن خروجه على المعتمد ، وأحس المعتمد بما يضمره ابن رشيق فى نفسه فبادر بالاتصال بيوسف بن تاشفين ، وحثه على الجواز بجيوشه إلى الأندلس المرة الثانية لمحاصرة حصن لييط الذى كان القشتاليون يشنون منه الغارات فى أراضى المسلمين المجاورة لمرسية ، وعرض المعتمد على ابن تاشفين أن يحكم معه ماشاء من عمل فى مرسية وغيرها (٥٧) ، فلما أقبلت جيوش المرابطين للمساهمة فى حصار حصن لييط ، واجتمعت معها جيوش الطوائف ، استغل ملوك الطوائف هذه الفرصة ليشكو كل منهم زميله ليوسف بن تاشفين ، وعمد ابن رشيق إلى بذل الاموال والهدايا إلى أمراء المرابطين وقوادهم وعلى الاخص إلى الامير سير بن أبى بكر ، فأعطى « ابن رشيق الامان ، وبولغ له فى التأنيس ، حتى غره ذلك وانبسط له ، ورتاه على ابن عباد ، وأظهر معصيته والانخياش منه ، قائما فى ذلك بدعوة الامير ومستندا إليه ، حتى أفضى ذلك به إلى أن أمر أن تكون الخطبة بمرسية على اسم أمير المسلمين (يقصد يوسف بن تاشفين) دون ابن عباد (٥٨) » .

وأغاظ هذا التصرف ابن عباد وأثاره عليه ، ولكنه لم يرض بالأمر الواقع ، فعمل على وصمه بتهمة التعاون مع النصارى ومساعدتهم ، تمهيدا لاستصدار فتوى فقهية بعزله واعتقاله ، ويعبر الأمير عبد الله الزيرى عن ذلك فى مذكراته بقوله : « والمعتمد فى هذا كله يرى من الامر مايغيظه ويكربه ، ويتقطع منه حسرات ، حتى له فلم ينم عن القضية ، وأحكمها مع الفقهاء ، واحتج عليه بأحكام السنة ، وكان ن اصطنع على ذلك ابن القليعى (٥٩) .

وكان ابن تاشفين يراقب الخلاف القائم بين المعتمد وابن رشيق عن كثب ، وكان بإمكانه أن ينصب نفسه حكما فى هذا النزاع فيميل إلى ابن رشيق ويناصره على المعتمد ، ولكنه آثر بعد إعمال الفكر أن يستجيب لمطالب ابن عباد ، فيؤيده فى خشيته مداراة له ، ولاحتياجه إليه فيما هو بسبيله ، « فتعسف على ابن رشيق فى الذى ظهر من الخلاف على صاحبه ، وقال له : ماكان يجب لك أن تقوم بدعوتى للقيام

على رئيسك ، فتروقع بيني وبينه الشحناء . وقال في نفسه : لم يفعل ذلك ابن رشيق إيثارا لى ولا محبة لجوتى ، أكثر من اضطرام النار على صاحبه ، وإشغاله بى عن نفسه ، ولا سيما أن معونته للروم بلييط لم تخف على أحد ، يعتقد أن بيقائها يثبت فى مرسية ، فكان أبدا يميزهم ويقويهم بما يعجزون عنه ، إبقاء لرمقهم ، وخوفا من الداخلة عليه بفقدهم (٦٠) .

ولم ينتظر المعتمد حتى يتخذ ابن تاشفين قراره ، فبادر باستفتاء الفقهاء فى أمر ابن رشيق ، فاجتمع هؤلاء فى مجلس أفتوا فيه بخلعه وتسليمه للمعتمد ، وأيد ابن تاشفين قرار الفقهاء ودعا إلى تثقيفه وتسليمه إلى المعتمد ، الذى أمر باعتقاله فى إشبيلية وتقليد الراضى بن المعتمد واليا على مرسية مكان ابن رشيق (٦١) .

ولكن لم تطل تبعية مرسية لدولة المعتمد فما لبث ابن تاشفين أن انقلب على ملوك الطوائف ، فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣ هـ ، وهو ينوى فى هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف ، وتوحيد كلمة الأندلس ، وتأليف جبهة مغربية أندلسية متحدة لمواجهة خطر النصرانية المتزايد . وبدأ يوسف بن تاشفين بنكبة الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، فعزله عن ملكه ، ونفاه إلى مكناسة بأرض المغرب ، ثم أتبعه بأخيه تميم صاحب مالقة ، فنفاه إلى السوس . وفى العام التالى سير أربعة جيوش مرابطية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف الآخرين ، ومحاصرتهم فى قواعدهم ، وانتهى الأمر بإسقاط كل من المعتمد بن عبـــاد ملك إشبيلية ، والمتوكل على الله بن الأفطس ملك بطليوس مرشنترين وما يليها من إقليم استرامادورا غرب الأندلس ، كبيرى ملوك الطوائف ، فنفى المعتمد إلى أغمات بأرض السوس فى سنة ٤٨٤ هـ ، بينما قتل المتوكل وابناه أثناء توجيههم أسرى إلى إشبيلية فى أخريات سنة ٤٨٨ هـ (٦٢) .

وكانت قوات القـــائد المرابطى الكبير محمد بن عائشة (٦٣) ، قد تمكنت من انتزاع مدينة مرسية ، فولى عليها ابن عائشة من قبله قائدا مرابطيا يقال له أبو عبد الله محمد بن الحاج (٦٤) ، ولكن مرسية لم تلبث أن تعرضت فى سنة ٤٨٤ هـ لغزوة

قام بهـــا البرهانس (أو البارهانش) (٦٥) ، بينما تعرضت شاطبة لحصار السيد القنبيطور el Cid el Campeador ، والمرية لحصار القـائد القشتالى غرسية خيـنث (٦٦) ، وقام أحد أساقفة الفرنجة ببناء حصن على ضفة البحر بالقرب من مرسية يقال له حصن منشة أو شجنة (٦٧) . وأدت هذه الأحداث إلى خروج ابن عائشة بقـوات المرابطين من إشبيلية نحو مرسية ، ودارت بينهم وبين القشتاليين موقعة عنيفة انتهت بهزيمة القشتاليين ، وتمـكن ابن عائشة من استرداد مدينة مرسية ، فدخلها ، وخلع صاحبها ، ولعله نفس ابن رشيق الذى يغلب على الظن أنه أعيد إلى ولاية مرسية بعد أن أفرج عنه المرابطون عند دخولهم إشبيلية ، فخرج من ثقافه (٦٨) خاصة وأن أهل مرسية كانوا قد امتنعوا عن الخضوع للراضى بن المعتمد ، ولواليه عليها القائد ذى الوزارتين أبى الحسن بن اليسع (٦٩) ، الذى خلعوه عن ولاية مدينتهم ، وثقفوها ، « وجفوا كل من مضى إليهم ، واستمت الحال على ذلك بعـد وسائط كثيرة تـكررت بينهم (٧٠) » .

وأيا ما كان الأمر ، فقد آلت مرسية إلى المرابطين الذين تمهدت لهم بلاد المغرب والأندلس ، واتخذها الأمير ابن عائشة فيما يظهر قاعدة لامارته فى شرق الأندلس (٧١) ومنها خرج ابن عائشة فى ٤٩٠ هـ واشترك بقواته مع محمد بن الحاج فى إيقاع الهزيمة بجيش القشتاليين فى كنشرة Consuegra (٧٢) ، كما قام فى سنة ٤٩٧ هـ بهزيمة القشتاليين فى فحص اللج الواقع بالقرب من طليطلة (٧٣) ، كما خرج من مرسية فى سنة ٥٠١ هـ ليشترك مع الأمير تميم بن يوسف فى موقعة أقليش المعروفة بوقعة الأقلاط السبعة السابق ذكرها ، وهى الوقعة التى لقى فيها الأمير سانشو بن الفونسو السادس مصرعه (٧٤) ، كما قتل فيها جند القشتاليين وكماة رجالهم عددا يصل إلى ٢٣ ألفا (٧٥) . كذلك خرج ابن عائشة من مرسية فى سنة ٥٠٤ لنجدة محمد بن الحاج عامل سرقسطة عندما حاصرها الفونسو سانشث Alfonso Sanchez المعروف بالفونسو المحارب ، ملك أرغون ونبرة .

ويعتبر ابن عائشة أول أمير مرابطى تولى إمارة شرق الأندلس من مرسية ، وظل يقوم بمهـام هـذا المنصب بالاضافة إلى قيـــادته لجيوش هـــذه المنطقة إلى أن كف بصره فى سنة ٥٠٨ هـ عقب غـزوة برشلونة

التى استشهد فيها أبو عبـــد الله محمد بن الحاج ، وهى المسماة بوقعـــة البـــورت (Congost de Martorell) (٧٦) ، فاستدعاه أخـــوه الأمـــير على بن يوسف إليه ، وأقام مكانه عليها أخاه إبراهيم المعروف بابن تعيشت (٧٧) الذى ولى أمرها إلى أن انتقل إلى إمارة إشبيلية (٧٨) . ويبـدو أن ابن عائشة كان يترك لأهل مرسية حق اختيار من يتولى شؤون مدينتهم ، مكتفيا هو بإمارة شرق الأندلس ، وقيـادة الجيوش ، وذلك لاضطراره إلى الخروج من مقـر إمارته فى أوقات الحروب أو عند توجهه إلى بلنسية أو جزيرة شقر (٧٩) طلبا للراحة . ويؤكد ماذهبنا إليه أن مرسية كان لها قصران : أحدهما القصر الـكبير وكان يقيم فيه ابن عائشة ، والثانى الدار الصغرى (٨٠) لاقامة والى المدينة ، كما يؤكده أن ابن عذارى ذكر أنه خطب فى مرسية لقائد يقال له أبو محمد عبدالله الثغرى فى ١٤ شوال سنة ٤٨٩ هـ ، ولـكن ولايته لمرسية لم تطل إلى أكثر من ١٦ يوما خلعوه بعدها فى ٣٠ من شوال بسبب كراهيتهم لسيرته ، ثم بايعوا عليهم القائد الثغرى أحمد بن أبى جعفر عبد الرحمن بن طاهر الذى تزعم الثورة على القائد أبى محمد الثغرى السالف ذكره فى أول ذى القعدة سنة ٤٨٩ هـ ، ثم خلع ابن طاهر بدوره فى ٢ ربيع الأول سنة ٤٩٠ هـ ، وقتل (٨١) . ثم أسندت ولاية مرسية إلى أبى زكريا يحيى بن على بن غانية المسوفى فى سنة ٥١١ هـ (٨٢) من قبل يدر بن ورقاء أمير بلنسية .

ولم يلبث المرابطون أن استنفذوا قواهم فى الأندلس بسبب المعارك المتواصلة التى خاضتها جيوشهم ضد أعداء الأندلس من الممالك النصرانية فى شبه جزيرة أيبيريا وتكتل قطلونية وأرغون وقشتالة والبرتغال ضدهم ، وبسبب الهزائم التى منيت بها جيوشهم أمام الفرنسو المحارب فى سرقسطة سنة ٥١١ هـ وفى كتندة من قرى سرقسطة فى سنة ٥١٤ هـ (٨٣) ، وكانت هذه الموقعة كارثة للمرابطين إذ قتل فيها من المطوعة عشرون ألفا (٨٤) . وعندما طالب المرابطون أهل الأندلس ببذل العون لهم تنكر الأندلسيون لهم ، وتحولوا عنهم وأعلنوا ثوراتهم عليهم ، وطردوا ولاتهم وضبطوا أمور بلادهم بأنفسهم ، واستعان فريق من ثوار الأندلس على المرابطين بجيوش قشتالية وبرتغالية (٨٥) . فاستقل ابن وزير بغرب الأندلس ، وأبو محمد سدراى ويوسف البطروجى بلبلة ، ولبيد بن عبدالله بشنترين ، وأبو القمر بن عزوز

بشريش ، وعلى بن عيسى بن ميمون بقادس ، ومحمد بن على بن الحجام ببطليوس ، ومحمد بن المنذر بشلب ، وابن عنان بيابرة ، وابن حمدين بقرطبة ، وابن حسون بمالقة ، وأبو أمية أحمد عاصم بأوريولة . اما مرسية فقدكان يتولى القيادة فيها القائد أبو زكريا يحيي بن على بن غانية منذ سنة ٥١١ ، وظل يقوم بولايتها إلى أن كانت سنة ٥٣٩ ه ، وهى السنة التى كثر فيها الثوار بشرق الأندلس وغربها من القضاة وغيرهم ، وكان أول الثوار على المرابطين بمرسية أبو محمد عبد الرحمن بن جعفر بن ابراهيم بن الحاج ، قدمه أهل مرسية عليهم ، فدعا لابن حمدين الثائر بقرطبة أياما من شهرى رمضان وشوال سنة ٥٣٩ ه ، ثم سحب تبعيته له ، واستقل بمرسية . وفى هذه الآونة ظهرت شخصية بارزة فى الأندلس ، هو سيف الدولة بن هود أبو جعفر أحمد ابن عبد الملك المستنصر بالله صاحب سرقسطة وحصن روطة الذى تمكن من إزاحة ابن حمدين من قرطبة وتغلب على جيان وغرناطة ، فداخله أهل مرسية واستدعوه ، وولوه عليهم فى آخر سنة ٥٣٩ه ، فقدم إليها فى ١٨ رجب سنة ٥٤٠ ه (٨٦) . وكان قد أقام عليها من قبله قائدا من قواده يعرف بعبد الله بن فتوح الثغرى ، الذى شرع ولايته بإخراج ابن الحاج منها فى ١٥ شوال سنة ٥٣٩ ، والدعوة لابن هود (٨٧) . ولم يطل العهد بابن فتوح فى مرسية ، فلم يلبث أن انقلب عليه أهل مرسية فأخرجوه منها ، وقدموا عليهم القاضى الفقيه أبا جعفر محمد بن عبدالله بن أبى جعفر الخشنى فى آخر شوال سنة ٥٣٩ ، وقلدوه رئاستهم ، وكان أبو جعفر هذا من أهل البيوتات الكبيرة بمرسية ، وكان يتظاهر بالزهد فى الإمارة ويقول : « ليست تصلح لى ولست لها بأهل ، ولكنى أريد أن أمسك الناس بعضهم عن بعض حتى يجىء من يكون لها أهلا (٨٨) » . ثم دعا أهل مرسية لابن حمدين ، فأرسل إليهم أبا محمد عبدالله بن عياض الثغرى قائد كونكة والسيا ، بينما قدم أبا جعفر بن أبى جعفر قاضيا فتنازع الرجلان على الاستبداد بمرسية ، فداخل أبو جعفر أهل بلده فى أن يؤمروه ويقدموا للقضاء أبا العباس الحلال والقيادة الخيل عبدالله الثغرى ، فلم يخالفوه وتمكن أبو جعفر على هذا النحو من الاستئثار بالحكم . وما إن تم له ذلك حتى نبذ طاعة ابن حمدين ودعا لنفسه ، وتلقب

بالأمير الناصر لدين الله ، وقبض على الثغرى فسجنه هو وصهريه ، وقلد قيادة الجيوش لزعنون ، أحد وجوه الجند (٨٩) .

بعد أن أقصى الثغرى عن الحكم اوجه ابن أبى جعفر إلى شاطبة ليعين أميرها ابن عبد العزيز فى إحكام الحصار على المرابطين المتحصنين بقصبتها بقيادة عبد الله ابن محمد بن غانية ، فانتهز العامة بمرسية فرصة غياب أميرهم ابن أبى جعفر ، فأخرجوا عن الثغرى وصهريه من معتقلهم ، وما كاد ابن أبى جعفر يعلم بذلك حتى بادر بالعودة إلى مرسية ، ونجح فى إخماد الحركة المضادة ، فاضطر الثغرى إلى الفرار إلى كونكة ، وعندئذ عاود ابن أبى جعفر حصاره لشاطبة ، وأرغم ابن غانية على الخروج منها ، ثم عاد إلى مرسية فى صفر سنة ٥٤٠ هـ . ودعاه أهل غرناطة لنجدتهم ، فاستجاب لدعوتهم ، ولكنه تلقى هزيمة نكراء على أيدى المرابطين (٩٠) بظاهر غرناطة فى ربيع الأول سنة ٥٤٠ ، فقبض عليه جنده ، وقتلوه وأجمع أهل مرسية على تأمير حفيد لأبى عبد الرحمن بن ظاهر ، ولكنهم زهدوا فى إمارته فخلعوه . ثم اتفقوا على تقديم القائد أبى محمد عبدالله بن عياض الثغرى (٩١) . وكان ابن عياض هذا قائدا عظيما ، أرهب إسبانيا بسيفه ، وكان « النصارى يعدونه وحده بمائة فارس ، إذا رأوا رايته قالوا هذا ابن عياض هذه مائة فارس (٩٢) » . وقد نجح ابن عياض فى ضم بلنسية إلى إمارته بمرسية ، ودعا لابن هود (٩٣) ، ثم دعا لنفسه بعد وفاته . وكان ابن عياض قد استقدم القائد الثغرى للإفادة من خبراته ، فأنفذه رسولا من قبله إلى أذفونش (الفونسو السابع المعروف بالسليطين والملقب بالامبراطور (٩٤)) ليعقد معه السلم ومع حليفه صاحب برشلونة ريموندو برينجر الرابع ، فدخل الثغرى مرسية فى غياب ابن عياض وثار فيها بزعم أن أذفونش أمره عليها فهرب محمد بن سعد بن مردنيش نائب ابن عياض فيها إلى لقنت فى ٧ رجب سنة ٥٤١ هـ ولكن ابن عياض تمكن سريعا من استرجاع مرسية . وكان ابن عياض قائدا مجاهدا ، غازى النصارى ، ولكنه استشهد فى إحدى المعارك (٩٥) ، إذ أصيب بسهم رماه به أحد النصارى فى ٢٢ ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ ، فدفن ببلنسية ، وتولى على مرسية من

بعده نائبه فيها على بن عبيد ، وظل يتولى أمر مرسية إلى أن تخلى عن الامارة لأبى عبدالله محمد بن سعد الجزامى المعروف بابن مردنيش (٩٦) صهر ابن عياض ، فى أواخر جمـــادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ . وقد تمكن ابن مردنيش من التغلب على إقليم شرق الأندلس ، واستعان بالنصارى الإسبان واتخذ منهم أعوانا وجندا ضد خصومه الموحدين ، وخصص لهم بمرسية ، منازل فيها الحانات والبيع (٩٧) ، وأخرج كثيرا من أهل مرسية وأسكن النصارى مكانهم (٩٨) . ثم آل أمر ابن مردنيش إلى الادبار بسبب استعانته بنصارى إسبانيا ضد الموحدين الذين ثبتت أقدامهم فى الأندلس لجمع شتاته أمام حركة الدفع الاسبانية ، واشتبك ابن مردنيش مع جيوش الموحدين فى عدة معارك تبـــادل فيها الفريقـان النصر والهزيمة ، ولكنه انهزم على أيدى الموحدين فى فحص الينذون الواقع شرق لورقة فى ٧ ذى الحجة سنة ٥٦٠ هـ (٩٩) ولعله نفس الفحص المعروف بالفندون المتصل بفحص شنقنيرة (١٠٠) ، وقد أعاد الموحـــدون حصارهم لمرسية فى رجب سنة ٥٦٦ هـ ، وتمكنوا من انتزاع حصن إلش الواقع غربى مرسية وجزيرة شقر من يد ابن مردنيش . وفى سنة ٥٦٧ هـ عزم أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على التغلب على ابن مردنيش ، فتظاهر بقصده غزو القشتاليين ، فحشد حشودا ضخمة من قبائل الموحدين والعرب بلغ عددها مائة ألف (١٠١) وأجاز إلى الأندلس ، وقصد إشبيلية ونزلها ، ثم جهز عساكره إلى محمد بن مردنيش ، وكتب إلى أخيه عثمان بن عبد المؤمن والى مدينة غرناطة ، يأمره بالزحف بعساكر الموحدين إلى مدينة مرسية دار مملكة ابن مردنيش ، فخرج عثمان بالعسكر حتى نزل فى موضع قريب من مرسية يقال له الجلاب يبعد عنها بنحو ٤ أميال ويعرف بجامة بلقواد فزحف إليه ابن مردنيش فى جموع عظيمة أكثرها من الافرنج ، فالتقى جيشه مع الموحدين فى موقعة عنيفة انتهت بهزيمة ابن مردنيش وأنصاره هزيمة نكراء ، تراجع على أثرها إلى مرسية وامتنع بداخـــل أسوارها ، واستعد للحصار (١٠٢) وواصل الموحدون حصارهم على مرسية وشددوه هذه المرة ، فاعتل ابن مردنيش بمرض الذبول وتوفى فى ١٠ رجب سنة ٥٦٧ ، وتكتم رجاله خبر موته حتى قدم أخوه

يوسف بن سعد الملقب بالرئيس من بلنسية ، فاجتمع رأيه ورأى أبناء أخيه على أن « يلقوا أيديهم فى يد أمير المؤمنين أبى يعقوب ويسلموا إليه البلاد (١٠٣) » ، وقيل أن ابن مردنيش عندما حضرته الوفاة استدعى بنيه وخاطبهم قائلا « يابنى ، إنى أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر ، وأتباعهم قد كثروا ودخلت البلاد فى طاعتهم ، وإنى أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم ، فسلموا إليهم الأمر اختيارا منكم ، تحظوا بذلك عندهم ، قبـــل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم وقد سمعتم مافعلوا بالبلاد التى دخلوها عنوة (١٠٤) » ويؤكد ابن الخطيب أن ولده أبا القمر هلال تولى الأمر من بعده ، فبادر بإعلان طاعته للموحدين ، وتخلى لهم عن مرسية ، فوجه الخليفة أبو يعقوب يوسف إلى مرسية أخاه السيد أبا حفص (١٠٥) .

وهكذا دخلت مرسية فى فلك دولة الموحدين ، وبدخولها فى دائرة نفوذ الموحـــدين استوسقت طاعتهم بشرق الأندلس وشملته دعوتهم . ثم توالت على مرسية ولاة الموحدين ، نخص بالذكر منهم الشاعر أبا رجال بن غلبون (١٠٦) ، وتوجه الخليفة أبو يعقوب بنفسه إلى مرسية فى ذى الحجة سنة ٥٦٧ وأقام فيها زهاء شهرين (١٠٧) . وتزوج الخليفة الموحدى الزرقاء المردنيشية إبنة محمد بن مردنيش فى سنة ٥٧٠ هـ (١٠٨) ، وتلطف مع بـــنى مردنيش لالتزامهم الحكمة باستسلامهم إليه ، فآثر هلالا بصحبته (١٠٩) ، وقلد غانم بن محمد على أساطيل العدوة بسبتة (١١٠) ، وقدم الأمير يوسف بن سعد على بلنسية وجهاتها (١١١) وظل يتقلد هذه الولاية حتى توفى فى سنة ٥٨٢ هـ .

ولما ضعفت دولة الموحدين وتفرقت كلمتهم على أثر وفاة أبى يعقوب يوسف الثانى بن محمد الناصر فى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ، أعلن أبو محمد عبدالله بن ابى يوسف يعقوب المنصور نفسه خليفة للموحدين ، واتخذ مرسية قاعدة له ، وتلقب بالعادل . فأقام عليها السيد أبا العباس بن أبى موسى بن عبـــد المؤمن ، وانتقل العادل إلى المغرب حيث قتل فى سنة ٦٢٤ هـ (١١٢٧ م) فنصب أخوه أبو العلاء إدريس نفسه خليفة ، وتلقب بالمأمون فى الوقت الذى بويع فيه أبو زكريا المعتصم

بالخلافة الموحدية فى المغرب ، وبينما قامت الحرب الأهلية بين المأمون وبين المعتصم كان النصارى فى أسبانيا يستولون على مدن الأندلس مدينة إثر مدينة وحصنا بعد حصن ، وتغير ميزان القوى فى الأندلس ، ولم تعد للمسلمين الكفة الراجحة .

وفى هذه الفترة الحاسمة من تاريخ الأندلس المشحونة بالاضطراب والفوضى قام أمير زعم أنه من سلالة بنى هود ، يدعى أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود ويسميه الاسبان فى مدوناتهم التاريخية بسيف الدولة Zafadola ، على الخليفة الموحدى المأمون ، فاستولى على مرسية وبويع له أميرا عليها ، ثم ضم إليه قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والمرية والجزيرة ، وأطاعته سبتة (١١٢) . وأسند ولاية مرسية إلى عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب ، فدخلها فى آخر رجب سنة ٦٢٥ هـ ، وكانت الأندلس تجتاز وقتئذ مرحلة خطيرة من تاريخها : فالحرب الأهلية تشتد احتداما ، والنوائب والاضطرابات الداخلية تطحنها طحنا وتمزقها إربا ، وحركة الاسترداد الأسبانى تزداد عنفا ، والتوسع المسيحى يزداد تقدما فى قلب الأندلس ، وانتهز ملوك إسبانيا المسيحية فرصة انقسام الجبهة الاسلامية وانفتها وأخـــذوا يتوسعون على حساب دولة الاسلام فى الأندلس ، ففى سنة ٦٢٢ هـ استولى خايمى الأول (جاقمة) ملك أرغون على طرطوشة ومايليها ، وفى ٦٢٦ هـ سقطت مارده وبطليوس فى أيدى القشتاليين وفى سنة ٦٢٧ هـ استولى خايمى الأول على ميورقة ، كما تمكن فرناندو الثالث ملك قشتاله فى ٢٣ من شوال سنة ٦٣٦ هـ (٢٩ يونيو ١٢٣٦ م) من الاستيلاء على قرطبة الحاضرة القديمة للأندلس ، وأثار سقوطها فى أيدى القشتاليين الحزن والأسى فى نفوس المسلمين ، وتحطمت أعواد إسبانيا الاسلامية بعد هذه الصدمة العنيفة وانكمشت رقعتها سريعا أمام الدفع السريع لحركة الاسترداد الاسبانى . وتبع سقوط قرطبة سقوط غيرها من مدن الأندلس ، وأصبح الاسترداد الاسبانى لما بقى من ملك المسلمين فى الاندلس أمرا يكاد يكون محتوما ، وفى هـذه اللحظات الحاسمة التى يتقرر فيها مصير الاسلام فى إسبانيا توفى ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) مخنوقا بإيعاز من وزيره محمد بن الرميمى بالمرية ، بعد أن نقب فى قصره نقبا (١١٣) ، وعلى

أثر وفاته وجد جايمى الأول ملك أرغون الفرصة مهيأة أمامه لغـزو بلـ
كان يعتبرها منطقة امتداد للملكة ، فحاصرها برا وبحرا ، وقذفها بالمجانيق
حصاره لها حتى نفذت فيها الأقوات واستولى الجوع على أهلها ، فتوجهو
العـون والنجدة إلى الأمير أبى زكريا الحفصى فى المحرم سنة ٦٣٦ هـ ،
الأجفان من تونس تحمل معـونة الأمير الحفصى إلى أبى جميل زيان
بلنسية ، ولكن هذه السفن التونسية لم تستطع أن تفرغ حمولاتها بسبب
الأرغونيين لحصارهم البحرى والبرى حول المدينة التعسة ، واضطرت هذ
إلى تفريغ شحناتها من أطعمة وسلاح وغير ذلك بثغر دانية (١١٤) . و
بلنسية أن استسلمت فى ١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ (١١٥) (١٢٣٨ م) ، ود
الأندلس عقب سقوطها نواقيس الخطر ، إذ كان الرزء على المسلمين بفقد
والخطب فادحا ، وانطلقت صيحات الاستنصار تنطلق من أهل مرسية وبلـ
هذه تونس لحث أميرها أبى زكريا بن أبى حفص على إنقاذ مدن الأندلس، و
الصرخات الشعرية السينية التى نظمها الكاتب أبو عبد الله بن الأبار القضاعى و

أدرك بخيلك خيل الله أنـدلسا إن السبيل إلى منجاتهـا د
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منـك عز النصر

ويستعرض الشاعر ما أصاب الأندلس من كوارث ونكبات مـ
القشتاليين والأرغونيين فيقول :

يا للجزيرة أضحى أهلهـا جـزرا للحـادثات وأمس جـده
فى كل شارقـة إلمـام بارقـة يعـود مأتمها عنـد العد
وكل غاربـة إجحـال شائبـة تثنى الأمان حـذارا والسرو
تقـاسم الروم لا نالت مقـاسمهم إلا عقـائلها المحجـوبة ا
وفى بلـنسية منهـا وقرطبـة ما ينسف النفس أو ما ينزف
مدائن حلهـا الاشراك مبتسما جذلان ، وارتحل الايمان مبتئسا

أما مرسية ، فقد انفرد بتدبير أمورها بعد وفاة ابن هود الفقيه أبو بكر

ابن عبد الملك بن خطاب ، الذى بادر بخلع الواثق أبى بكر بن محمد بن هود ، ودعا لنفسه وبويع له فى ٤ من المحرم سنة ٦٣٦ هـ (١١٧) أى قبل سقوط بلنسية بما يقرب من شهر . وكان ابن خطاب عالما زاهدا ، ثم انقلب بعد انفراده بالسلطان سفاكا للدماء ، وتشبه بالملوك دون أن تكون له خبرة بأمور السياسة والحرب ، فلم تشفع كفايته للإمارة ، فما كاد يلتحم مع القشتاليين فى إحدى الوقائع حتى ولى الأدبار ، وانهزم جيشه انهزاما مخزيا ، ترتب عليه استشهاد عدد كبير من أهل مرسية ، فكرهه أهل المدينة ، وعزلوه عن إمارتها ، واستدعوا فى ١٦ رمضان سنة ٦٣٦ هـ الأمير أبا جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن يوسف بن سعد بن مردنيش صاحب بلنسية (قبل أن يستولى عليها الأرغونيون) ودانية وأبذة وجنجالة ، فدخل المدينة طوعا ، وهاج العامة فى مرسية على ابن خطاب ، فهاجوا قصر مرسية ، وانتهبوا ما كان فيه من فرش وثياب وآنية وأموال ، وتم القبض عليه ، وظل معتقلا أياما إلى أن قتل ببعض زوايا القصر فى ٢٠ رمضان سنة ٦٣٦ هـ ، وأخذت البيعة للأمير أبى زكريا صاحب تونس (١١٨) . ولم يطل الأمر لزيان بن مردنيش ، إذ أخرجه عنها أهل مرسية ، وأعادوا الدعوة باسم بنى هود (١١٩) . وفى هذه الأنواء والعواصف السياسية التى هزت مركز الاسلام فى شرق الأندلس آثر عدد كبير من أهل مرسية الرحيل عنها رغما عنهم .

ثم تتابعت الأحداث فى مرسية سريعا فى السنين الأربعة التى سبقت سقوطها فى أيدى القشتاليين ، وأخبار هذه الفترة القصيرة غامضة فى المصادر العربية ، وكل مازودتنا به لايزيد على أن القشتاليين أحاطوا بمرسية من كل جانب ، وأخذوا يغيرون عليها وعلى نواحيها ، وقد أثر ذلك تأثيرا سيئا على عمرانها ، فساءت أحوالها ، خاصة بعد أن انتزع القشتاليون حصونها ومدنها ، فسقطت جزيرة شقر فى ٦٣٩ هـ . وكان الأمير محمد بن نصر بن الأحمر صاحب غرناطة ، الذى ظهر بعد ابن هود ، قد دخل فى طاعة فرناندو الثالث ، وتحالف معه بعد أن اشترط عليه فرناندو أن يكون تابعا له يزوده بالجند ، ويحارب معه بلاد المسلمين (١٢٠) .

وقنط أهل مرسية من إغاثة تأتيهم من الداخل أو من الخارج ، فاضطروا إلى أن يساعدوا القشتاليين فى ١٠ شوال سنة ٦٤٠ هـ على الدخول فى طاعتهم ودفع جزية لهم ، وتسليم القصبة إليهم . ويذكر ابن الأبار أنه لما أمكن أهل مرسية الروم منها احتج محمد بن على بن أحلى أحد أدباء مرسية عليهم « وضلل رأيهم وأبدى مخالفتهم ، وجعل يجادلهم بلسانه ويجالدهم بسنانه ، فدعا ذلك إلى قصده والعيث فى جهته حتى اضطر إلى المسالمة (١٢١) » . ويبدو أنه كان يتولى مرسية يومئذ أحد أحفاد ابن هود ، فقد ذكر العذرى أن أحمد بن محمد بن هود ، ولد والى مرسية ، قدم بجماعة من وجوه النصارى فحكمهم إياها صلحا (١٢٢) .

ثم فطن أهل مرسية فى أوائل سنة ٦٤١ هـ إلى حقيقة ما حدث ، فعملوا على تحرير بلدهم ، وثاروا على القشتاليين المقيمين فى القصبة وأخرجوهم منها ، وأعلنوا دخولهم فى طاعة ابن الأحمر ، فأرسل إليهم أبا محمد بن أشقيلولة واليا ، ولكن القشتاليين لم يسكتوا على ذلك ، فهاجروه ، وضيقوا عليه فاضطر إلى الفرار بنفسه تاركا مرسية لمصيرها التعس ، فولى أهل مرسية عليهم قائدا منهم ، ورد ذكره فى المصادر اللاتينية باسم ابن هذيل (Abenhodeil) ومع ذلك فقد أحس هذا الوالى بالنتيجة المحتومة ، فآثر بالاتصال بقادة الملك القشتالى ، وفى مقدمتهم بلاى بيريث كوريا Pèlay Perez Correa ، وتعاهد معه على تسليم مرسية إليه على شريطة أن يتعهد كوريا بضمان سلامة أرواح أهل المدينة وأموالهم ، وبمقتضى هذا الاتفاق دخل القشتاليون مرسية فى ٩ ذى القعدة سنة ٦٤١ هـ (مايو ١٢٤٣ م) (١٢٣) .

ويشير ابن عذارى إلى أن فرناندو الثالث ورجاله أساءوا بعد ذلك إلى الجماعة التى تزعمت حركة المقاومة فى مرسية ضدهم ، فأخرجوهم منها إلى موضع يقال له الرشاقة (١٢٤) يعتبر من متنزهات مرسية المشهورة (١٢٥) ، ثم طردوهم منه بعد ذلك فى سنة ٦٧٣ هـ ، وهاجموهم فى الطريق ، وذبحوا منهم أعدادا هائلة .

واجتاحت الأندلس بعد سقوط مرسية موجة عاتية من الاضطراب والفوضى

سقطت خلالها معاقل إسلامية هامة ، نخص بالذكر منها مدينة شاطبة التى خرجت من أيدى المسلمين فى سنة ٦٤٥ هـ ، وإشبيلية التى استولى عليها القشتاليون فى سنة ٦٤٦ هـ بعـــد حصار دام عاما وخمسة أشهر (١٢٦) ، وفى هذه اللحظات الحاسمة فى تاريخ الأندلس ظهرت شخصية عربية قوية كان لها الفضل الأعظم فى ضم ماتبقى من مدن الأندلس وتوحيدها فى مملكة واحدة ، ذلك هو الأمير محمد بن يوسف ابن الأحمر الذى نجح فى تأليف جبهة قوية أمام الخطر الاسبانى المسيحى ، وقدر لأسرة بنى الأحمر أن تحكم مملكة غرناطة زهاء قرنين ونصف قرن ، على الرغم من الصراع غير المتكافىء بين النصرانية والاسلام ، وما عانته هذه المملكة من حروب داخلية انتهت فى آخر الأمر بسقوط غرناطة حاضرة هذه المملكة فى ٢ يناير ١٤٩٢ فى يد الملكين الكاثوليكيين .

* * *

كانت مرسية موطن الشيخ أبى العباس ومسقط رأسه من أعظم مدن شرق الأندلس فى العصر الاسلامى ، وأكثرها عمرانا واتساعا ، فقد اتسعت منذ تاريخ إنشائها وأصبح لها فى زمن الشريف الادريسى ربض عامر آهل يحيط بهـــا وبه أسوار حصينة ، وكانت مياه النهر الأبيض تشق ربضها ، وكان يجاز إليها من الربض على قنطرة من المراكب (١٢٧) ، وكان بنهرها أرجاء متنقلة على المراكب ، كما كان لها مسجد جامع جليل وحمامات عديدة وأسواق عامرة (١٢٨) ولاتحتفظ مرسية اليـــوم بآثار كثيرة من العصر الاسلامى ، وأهم ماتبقى فيها من العصر الاسلامى آثار حصن صغير يقال له « قصير منت أقوط » مازال يشرف على فحص مرسية ، ولعل هذا القصير كان أحد القصبات التى أسست فى زمن تبعيتها للمرابطين (١٢٩) .

واشتهرت مرسية بخصب تربتها ، وكرم بقعتها ، وطيب ثمارها ، وكثرة البساتين والمتنزهات فى نواحيها (١٣٠) ، حتى أنهم سموها « البستان » لكثرة جناتها المحيطة بها (١٣١) ، ومن أشهر فواكه مرسية الكروم والتين (١٣٢) . كذلك اشتهرت

مرسية بتوافر معادن الفضة (١٣٣) ، والبلور واللازورد (١٣٤) ، والمغرة (١٣٥) .
لكل ذلك ازدهرت مرسية فى العصر الاسلامى اقتصاديا ، وفاقت غيرها من مدن الأندلس فى مجـــال الصناعة ، فعرفت بصناعة الوشى والديباج والحلل (١٣٦) ، حتى قيل : « كما يتجهز الفارس من تلمسان كذلك تتجهز العروس من مرسية (١٣٧) » واختصت مرسية دون غيرها من مدن الأندلس بصناعة نوع من البسط المسماة بالتنتلية (١٣٨) كانت تصدرها إلى سائر بـــلاد المشرق ، وفى مرسية كانت تصنع « الأسرة المرصعة ، والحصر الفتانة الصنعة (١٣٩) وآلات الصفر والحديد من السكاكين والأمقـاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندى مايبهر العقل ، ومنها تجهز هـــذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها (١٤٠) » .
وكان يصنع فى جنجالة من عمـل مرسية من وطـاء الصوف مالا يمـكن صنعه فى غيرها (١٤١) .

وكما تألقت الحياة الاقتصادية فى مرسية تألقت الحياة العلمية بها ، وازدهرت ازدهارا تشهد به الأسمـاء اللامعة التى ظهرت فى مرسية وبرزت فى سمـاء الفـكر الأندلسى ، فقد كانت مرسية بلد العلم والأدب والفقه والتصوف ، على الرغم من النوائب التى أصابتها والأحداث المتتابعة التى عصفت بها طوال العصر الاسلامى ، فنبغ فيها فى عصر الطوائف وعصر المرابطين عدد كبير فى جميع فروع المعرفة فى الفقه والحديث والنحو والأدب ، نذكر منهم على سبيل المثال الفقيه أبو محمد عبدالله بن سعيد المرسى (ت ٥٥٥ هـ) (١٤٢) ، وأبو اسحاق إبراهيم بن عامر النحوى (١٤٣) ، وأبو الحسن على بن اسماعيل بن سيده المرسى اللغوى (١٤٤) ، ومن المتصوفة : ابن سبعين المرسى (ت ٦٦٩ هـ) (١٤٥) ، والشيخ الأكبر محى الدين بن عربى المرسى (ت ٦٣٨ هـ) (١٤٦) ، ومن الـكتاب : أبو عامر بن عقيد كاتب ابراهيم بن يوسف بن تاشفين (١٤٧) ، وأبو يعقوب يوسف بن الجذع كاتب ابن مردنيش (٤٨) وأبو محمد عبدالله بن حامد كاتب العـــادل الموحدى (١٤٩) ومن الشعراء : عبد الجليل بن وهبون (١٥٠) وعلى بن جزمون (١٥١) ، ومن الحفاظ الفقيه ابن برطلة أبو محمـد عبدالله بن موسى المرسى (١٥٢) وأبو جعفر أحمـد بن محمد

الكنانى المرسى (ت ٦٢٨ هـ) (١٥٣) والفقيه أبو عبدالله محمد بن عبدالله السلمى المرسى (ت ٦٥٥ هـ) (١٥٤) .

ومن علماء مرسية الذين نزلوا بمصر الفيلسوف أبو عبدالله محمد بن يوسف المرسى المتخصص فى الفقه والكلام ، وقد نزل الاسكندرية فى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) والشيخ الزاهد الكبير أبو العباس أحمد بن عمر الانصارى المرسى (ت ٦٨٦ هـ) .

* * *

وبعد فهذا ، أيها السادة ، عرض موجز لمدينة أبى العباس الذى هجرها رغما عنه بحثا عن وطن جديد ، أنفة من الدجن أى الخضوع لحكم النصارى . وشاء الله أن يتخذ ثغر الاسكندرية وطنه الجديد ، فيؤسس فيه مدرسة فى التصوف على طريقة أستاذه الشيخ أبى الحسن الشاذلى .

وتوفى الشيخ أبو العباس المرسى فى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٨ م) بعد ٤٤ سنة قضاها فى الثغر ، ودفن فى مقبرته برباط سوار خارج باب البحر ، تاركا فى قلوب أهل الاسكندرية ذكرى عاطرة ستبقى على مر الأيام .

الهـــوامش

(١) يرتفع نسب الشيخ أبي العباس المرسى إلى سعد بن عبادة الأنصارى ، صاحب رسول الله ، وأول من نزل الأندلس من بنى سعد بن عبادة الحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد بن عبادة الذى استوطن سرقسطة وأمقا بقرية من قراها يقال لها قربلان (ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٤٦) ، وأصبحت سرقسطة على هذا النحو منزل الأنصار فى الأندلس إلى أن انتقل عبـــد الرحمن بن محمد الأنصارى إلى بلنسية فرارا من الفتن التى احتدمت بسرقسطة (ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق الأستاذ عبدالله عنان ، ج ١ ص ١٨٩) وعلى أثر ذلك انتقل كثير من بنى سعد بن عبادة إلى نواحى الأندلس ، فاستقر بعضهم فى جنوب شرق الأندلس ، وتفرق البعض الآخر فى الشرق وعلى الأخص فى دانية وشاطبة (ابن الأبار ، الحلة السيراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ٢ ص ٣٠٣) . وإلى قيس بن سعد بن عبـــادة ينسب أيضا بنو الأحمر سلاطين غرناطة (المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) راجع ترجمة الشيخ أبي العباس فى : جمال الدين الشيال ، أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٩٢ - ٢١٢ ؛ حسن السندوبى ، أبو العباس المرسى ومسجده الجامع بالاسكندرية ؛ محمد محمود زيتون ، الإمام أبو العباس المرسى ، ص ٢٢ وما يليها .

(٣) فى فضائل الاسكندرية راجع ما أوردته تحت عنوان « الاسكندرية دار رباط » فى كتابى « تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى » الطبعة الثانية ، ص ٩١ - ٩٧ .

(٤) تاريـخ الاسكندرية وحضارتهــا فى العصر الاسلامى ، ص ٣٢٩ حاشية رقم ٢ .

(٥) الضبي ، بغية الملتمس فى تاريخ رجال الأندلس ، تحقيق كوديره ، ص ١٣٢ ، ١٣٤ .

(٦) ابن بشكوال ، الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، ج ٢ ص ٥١٨ ؛ الضبى ، ص ١٢٥ - ١٢٨ ؛ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج ٤ ص ٤٨ ؛ السيوطى حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢١٣ - المقرى ، ج ٢ ص ٢٩٣ ؛ جمال الدين الشيال ، أبو بكر الطرطوشى العالم الزاهد الثائر ، القاهرة ١٩٦٨ .

Pons Boigues, Ensayo Bio-bibliografico Sobre los historiadores y geografos arabigo-espanoles, Madrid 1898, p. 183.

(٧) السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٥ .

(٨) نفس المصدر ٢١٤ . (٩) نفس المصدر ، ص ٢١٥ .

(١٠) نفسه ، ص ٢١٦ . (١١) نفسه ص ٢٣٥ .

(١٢) نفس المصدر ، ص ٢٣٦ . (١٣) نفسه ص ٢٣٦ .

(١٤) المقرى ، نفح الطيب ، ج ٢ ص ٤١٥ .

(١٥) نفس المصدر ، ص ٣٩٤ .

(١٦) نفس المصدر ، ص ٣٥٧ .

(١٧) نفس المصدر ، ج ٣ ص ٣٤١ .

(١٨) ارجع إلى تاريخ الاسكندرية وحضارتها فى العصر الاسلامى ، ص ٢٢٩ .

(١٩) نفس المرجع ، ص ٤٨١ .

(٢٠) العذرى ، ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان فى غرائب البلدان ، والمسالك إلى الممالك ، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهوانى ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٦

(٢١) ارجع إلى : الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٦٢ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٦ ؛ المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢٢) محمد محمود زيتون ، ص ٢٣ .

(٢٣) الحميرى ، ص ٦٣ ؛ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ، ص ١١١ .

(٢٤) يرجع بعض مؤرخى العرب فتح تدمير إلى سنة ٩٢ ﻫ (٧١١ م) بعد هزيمة لذريق على أيدى المسلمين فى واقعة وادى لكة (ارجع إلى : أخبار مجموعة ، ص ١٣ ؛ ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ١٦) وهو تاريخ يتفق عليه الأسقف دون رودريجو والملك الفونسو العالم فى كتاب التاريخ العام (Mariano Remiro, Murcia Musulmana, P.2) ومنهم من ينسب فتح تدمير إلى عبد الأعلى بن موسى بن نصير فى سنة ٩٣ ﻫ (٧١٢م) (راجع المقرى ، ج ١ ص ٢٥٧) بينما يميل العدد الأعظم من المؤرخين إلى الاخذ برواية ايزيدور الباجى الذى يؤكد فتحها على يد عبد العزيز بن موسى (راجع : أخبار مجموعة ص ٢٦ - Saavedra, Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, p. 132 ؛ حسين مؤنس ، فجر الاندلس ، ص ١١٧) .

(٢٥) أخبار مجموعة ، ص ١٣ - ابن عذارى ج ٢ ص ١٦ - الحميرى ، ص ١٥٢ - المقرى ، ج ١ ص ٢٤٧ .

(٢٦) المقرى ، ج ١ ص ٢٢١ .

(٢٧) الحميرى ، ص ١٨١ - المقرى ، ج ١ ص ١٥٥ .

(٢٨) الحميرى ، ص ١٨٣ .

(٢٩) العذرى ، ص ٦ - الحميرى ، ص ١٨١ - السيد عبد العزيز سالم ، دائرة معارف الشعب ، مادة مرسية ، عدد ٦١ ص ٤٧ .

(٣٠) ابن حيان ، المقتبس فى تاريخ رجال الاندلس ، نشره أنطونية ملشور ، ص ٩ - ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ٢ ص ٢٠٥ .

(٣١) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٢٥٤

Una Cronica anonima de Abder-Rahman III, P. 53

(٣٢) الادريسي ، ص ١٩٤ - الحميري ، ص ١٥١ .

(٣٣) ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣٤) الادريسي ، ص ١٩٤ - الحميري ، ص ١٨٢ .

(٣٥) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٩٣ - ابن عذارى ، ج ٣ ص ١٥٥ - ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٤ - Mariano Gaspar Remiro p. 92 .

(٣٦) المقرى ، ج ١ ص ١٥٧ .

(٣٧) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، طبعة بيروت ، ص ٢١١ .

(٣٨) Mariano Gaspar Remiro, Murcia Musulmana, p. 97

(٣٩) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦٢ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٩٤ .

(٤٠) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٩٣ .

(٤١) ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١١٨ .

(٤٢) Mariano Gaspar Remiro, op. cit. p. 105 .

(٤٣) راجع التفاصيل في : ابن الأبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١٢٠ - ١٢٢ - Remiro, op. cit. p. 107, 108

(٤٤) الحلة السيراء ، ج ٢ ص ١١٩ ، ١٢١ - Aguado Bléye, Manuel de historia de Espana, t.1, p. 584

(٤٥) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

(٤٦) ابن الأبار ، ص ١٢٤ - Agüado Bleyé, op. cit. p. 584 .

(٤٧) نفس المصدر ، ص ١٢٤ .

(٤٨) نفس المصدر ص ١٢٤ - طالع ماورد من دراسات حول هذا الحصن في بحثي عن مرسية بدائرة معارف الشعب وفي ترجمتي لكتاب Ars His paniae, t. III تأليف الأستاذ جومث مورينو الذي صدر بعنوان الفن الاسلامي في إسبانيا .

(٤٩) ابن الآبار ، ج ٢ ص ١٢٤ . وقد توفى أبو عبد الرحمن بن طاهر هذا فى بلنسية فى ٢٤ جمادى الأخرى سنة ٥٠٨ ، فسير بجثمانه إلى مرسية حيث دفن .

(٥٠) نفس المصدر ، ج ٢ ص ١٤٦ - مذكرات الامير عبد الله الزيرى ، ص ٨٠.

(٥١) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ١٦٠ .

(٥٢) ابن الابار ، الحلة ص ١٤٦ - مذكرات الامير عبدالله ، ص ٨٠ .

(٥٣) نفس المصدر .

(٥٤) للاستزادة فى بنى هود راجع رسالة الدكتوراة التى قدمها الزميل الدكتور عفيف ترك عن مملكة سرقسطة فى القرن الخامس الهجرى و الحادى عشر الميلادى ، بعنوان : El Reino de Zaragoza en èl siglo XI de Jesucristo, Madrid, 1956, p. 90

(٥٥) ابن الخطيب ، ص ١٦١ .

(٥٦) راجع تفاصيل هذه الوقعة فى المصادر والمراجع الآتية : الحلل الموشية ، ص ٢٦ - ٤٣ - عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ١٣٢ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٤٢ - حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٧٣ - ٢٨٨ - عبد العزيز سالم ، المغرب الكبير ، ص ٧٢٣ - ٧٢٧

Ambrosio Huici Miranda, la invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI 1953, p. 40.

(٥٧) مذكرات الامير عبدالله ، ص ١٠٨ .

(٥٨) نفس المصدر ، ص ١١١ .

(٥٩) نفس المصدر ، ص ١١١ .

(٦٠) نفس المصدر ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٦١) نفس المصدر ، ص ١١٢ - ابن الخطيب ، ص ٢٥٧ .

(٦٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ١٨٦ .

(٦٣) هو الامير الاديب القائد أبو عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين ،

ولاه أبوه يوسف قائدا على شرق الأندلس لإقرار الأمور فى هذا الاقليم الحافل بالاحداث من بلاد الاندلس ، بعد أن عاثت فيه قوات السيد القنبيطور فسادا (راجع : ابن الابار ، المعجم فى أصحاب القـــاضى الصدفى ، ص ٥٥ - Codera, Estudios Criticos dè historia de Espana, Familia Real dé Los Benitexufin, Madrid, 1917, p, 105 - 109 ابن القطان ، جزء من نظم الجمان ، تحقيق الدكتور محمود على مكى ، ص ٨ ، حاشية رقم ١ - ابن الـكردبوس ، تاريخ الاندلس ، نص نشره وحققه الدكتور أحمد مختار العبادى ، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، المجلد ١٣ ، ص ١٠١ ، حاشية رقم ٤) .

(٦٤) راجع فى ترجمته : ابن القطان ، تعليق الدكتور محمود مكى فى حاشية رقم ١ ص ١١٠ - ابن الـكردبوس ، تعليق الدكتور مختار العبادى ، فى حاشية رقم ١ ص ٩٦ .

(٦٥) هو القومس أو القمط (الـكونت) القشتالى الفارفانيث (Alver Fanez) ابن أخى السيد القنبيطور ، أحد قواد قشتاليين سبعة للملك الفونسو السادس ، اشتركوا فى موقعة أقليش ضد المرابطين بقيادة الامير تميم ، التى انهزم فيها القشتاليون ، وانتهت بمصرع الامير سانشو ابن الملك الفونسو السادس من زايدة المسلمة كنة المعتمد بن عبـاد (ليفى بروفنسال ، الاسلام فى المغـرب والاندلس ص ١٥٩ - ابن القطان ، ص٧ ، حاشية رقم ١) .

(٦٦) ابن الـكردبوس ، ص ١٠٠ - ١٠١ .

(٦٧) نفس المصدر ، ص ١٠١ ، وحاشية رقم ٣ .

(٦٨) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٥٧ . وكان بنو ابن رشيق قد هربوا من مرسية بعـــد أن دخلتها قوات المعتمد بن عباد ، وانتزوا بالجهين ، ومنعوا الميرة عن مرسية ، فاختلت أمورها ، ووقع الغلاء بها (الحلل الموشية ، ص ٥٠) .

(٦٩) الفتح بن خاقان ، قلائد العقيان ، طبعة مصر ١٢٨٣ هـ ، ص ١٦٧ -
ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلي المغرب ، ج ٢ ص ٨٧ ، ٢٤٨ .

(٧٠) مذكرات الأمير عبدالله بن بلكين ، ص ١١٢ .

(٧١) ابن الآبار ، المعجم ، ص ٥٥ -

Remiro, Murcia Musulmana,p. 142 - Codera, familia real de los Benitexufin, p. 105

(٧٢) ابن الكردبوس ، ص ١٠٨ ،

(٧٣) نفس المصدر ، ص ١١٣ .

(٧٤) ليفي بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٥٩ .

Codera, Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana, Saragoza, 1899, p. 9

(٧٥) Codera, Decadencia, p. 9 .

(٧٦) راجع تفاصيل الموقعة المذكورة في :

Codera, Decadencia y desaparicion, p. 272 .

(٧٧) ابن الآبار ، المعجم ، ص ٥٥

Codera; Familia real de los Benitexufin, p. 105

(٧٨) نفس المصدر ، ص ٥٦ .

(٧٩) الفتح بن خاقان ، مطمح الأنفس ، القسطنطينية ، ١٣٠٢ هـ ص ٨٥ .

(٨٠) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٣١ .

(٨١) ابن عذارى ، ج ٣ ص ٢٠٧ .

(٨٢) ابن القطان ، ص ٢٢٠ ، ملحوظة ٣ .

(٨٣) ابن الآبار ، المعجم ، ص ٥٦ - المقرى ، ج ٦ ص ٢٠٤ - المغرب الكبير
ج ٢ ص ٧٣٦ .

(٨٤) المقرى ، ج ٦ ص ٢٠٤ .

(٨٥) المغرب الكبير ، ص ٧٤٢ .

(٨٦) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٥١ .

(٨٧) نفس المصدر ، ص ٢٢٧ .

(٨٨) نفس المصدر ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

(٨٩) نفس المصدر ، ص ٢٢٩ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، ص ٢٥٨ .

(٩٠) نتج عن هذه الموقعة أن خرجت لقنت وأعمال شاطبة من تبعيتها لامارة مرسية وانضافت إلى إمارة أبي عبد الملك مروان بن عبد العزيز صاحب بلنسية « ابن الآبار ، ج ٢ ص ٢٢٠ » .

(٩١) ذكر عبد الواحد المراكشي أن اسمه عبد الرحمن بن عياض « المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان ، ص ٢٠٨ - ٢٠٩ » .

(٩٢) عبد الواحد المراكشي ، ص ٢٠٩ .

(٩٣) أرسل إليه ابن هود ولده أبا بكر ، فخرج للقائه ، واحتفى بقدومه . كذلك قدم ابن هود بنفسه إلى مرسية في ٢٠ رجب سنة ٥٤٠ هـ ، وحل بقصر مرسية الكبير ، فأظهر له ابن عياض الطاعة ، ونزل القصر الصغير ، فعهد إليه ابن هود بالأمور كلها وخصه بالرئاسة ، ثم توجه معه ابن عياض لمحاربة القشتاليين باللج أو البسيط على مقربة من جنجالة حيث وافاها عسكر بلنسية بقيادة عبدالله ابن سعد بن مردنيش ، ودارت المعركة وانتهت بهزيمة ابن هود في ٣٠ شعبان سنة ٥٤٠ هـ « ابن الابار ، الحلة السيراء ص ٢٥١ » .

(٩٤) ابن الكردبوس ، ص ١٢٠ حاشية ٢ .

(٩٥) ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٠ .

(٩٦) هو إسباني الاصل ينتمي إلى أسرة Martinez أو Martinus أو Mardonius الإسبانية . ودخل أحد أجداده في ولاء عربي من جذام فنسب إليه وكان ابن مردنيش من أعظم أمراء مرسية « Codera, Decadencia. p. 112 et sqq - ابن الابار . الحلة السيراء ، ج ٢ ص ٢٣٢ حاشية ١ » .

«٩٧» ابن الخطيب ، ص ٢٦١ .

«٩٨» عبد الواحد المراكشي . ص ٢٤٩ .

«٩٩» ابن صاحب الصلاة . كتاب المن بالإمامة ، ص ٢٧٢ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، ص ٢٦٢ .

«١٠٠» الحميري ، صفة الاندلس ، ص ١٧٢ .

«١٠١» المقري ، ج ٦ ص ١١٣ ، ٢٢٢ .

«١٠٢» عبد الواحد المراكشي ، ص ٢٤٩ .

«١٠٣» نفس المصدر ص ٢٤٩ .

«١٠٤» نفس المصدر ص ٢٥٠ .

«١٠٥» ابن الخطيب ، أعمال الاعلام . ص ٢٧١ .

«١٠٦» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٦ .

«١٠٧» ابن صاحب الصلاة ، ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

«١٠٨» ابن الخطيب ، ص ٢٧١ .

«١٠٩» ذكر عبد الواحد المراكشي أنه أعطى هلال بن مردنيش اثنى عشر ألف دينار في يوم واحد « المراكشي . ص ٢٥٤ » .

«١١٠» في سنة ٥٧٥ غزا غانم بن مردنيش أشبونة وتغلب على قطعتين من سفن العدو ، وأسر في سنة ٥٧٦ هو وأخوه أبو العلا وجملة من أصحابه « ابن عذارى ، ج ٤ . ص ٣٠ . ابن الخطيب . ص ٢٧١ » .

«١١١» ابن الخطيب ، ص ٢٧١ .

«١١٢» ابن الخطيب ، ص ٢٨٠ .

«١١٣» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٢ - المقري ، ج ٦ ص ٢٠٨ .

«١١٤» ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠٤ .

«١١٥» ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ص ٢٧٣ ـ المقرى ، نفح الطيب ، ج ٦ ص ٢٠٤ .

«١١٦» المقرى ، ج ٦ ص ٢٠٠ ومايليها .

«١١٧» ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ص ٣١٠ ـ ابن الخطيب ، ص ٢٧٥ .

«١١٨» ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٠٥ ـ ابن الخطيب ، ص ٢٧٥ .

«١١٩» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

«١٢٠» اشترك ابن الأحمر فى الحملة القشتالية التى استولت على مدينة إشبيلية فى سنة ٦٤٦ هـ .

«١٢١» ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ص ٣١٤ .

«١٢٢» المقرى ، ج ٦ ص ٢١٦ .

«١٢٣» ابن الآبار ، ص ٣١٤ حاشية رقم ٢ .

«١٢٤» نفس المصدر ، ص ٣١٦ .

«١٢٥» ابن سعيد ، المغرب ، ج ٢ ص ٢٤٦ .

«١٢٦» ابن عذارى ، ج ٤ ص ٤٦٢ .

«١٢٧» الأدريسى ، ص ١٩٤ ـ الحميرى ص ١٨٢ .

«١٢٨» الحميرى ، ص ١٨١ .

«١٢٩» **Gomez Moreno, Ars Hispaniae, t.III, Arte espanol hasta los Almohades, Madrid, 1951**

«١٣٠» راجع ماورد فى المغرب لابن سعيد خاصا بقرى مرسية مثل قرية مولة الواقعة فى غرب مرسية ، وقرية بليانة الواقعة فى شمالها (ص ٢٧١ ، ٢٧٣) ، ومدينة القنت المشهورة بتينها وزيتها (ص ٢٧٤) ، ومدينة لورقة وقرية برزز المعروفتين بكثرة البساتين (ص ٢٧٥ ، ٢٨٥) .

«١٣١» الحميرى ، ص ١٨٢ ـ المقرى ، ج ١ ص ١٥٥ .

«١٣٢» الادريسى ، نزهة المشتاق ، ص ١٩٦ .

«١٣٣» ابن غالب ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، تحقيق الدكتور أحمد لطفى عبد البديع ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الأول ، ج٢ ، نوفمبر ١٩٥٥ ص ١٦ - ابن الفقيه الهمزانى ، مختصر كتاب البلدان ص ٨٧ - الحميرى ، ص ١٨٢ - المقرى ، نفح الطيب ، ج ١ ص ١٣٨ .

«١٣٤» كان البلور واللازورد يكثران فى ناحية لورقة من عمل مرسية (الحميرى ص ١٧١ - المقرى ، ص ١٣٨ ، ١٥٨) .

«١٣٥» الادريسى ، نزهة المشتاق ص ١٩٦ .

«١٣٦» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٤٥ - المقرى ج ١ ص ١٨٧ .

«١٣٧» ابن سعيد ج ٢ ص ٢٤٦ .

«١٣٨» نسبة إلى تنتالة من عمل مرسية (الحميرى ، ص ١٨٢ - المقرى ج١ ص ١٨٧ - ج ٤ ص ٢٠٧) .

«١٣٩» ذكر القلقشندى أنها اختصت بالبسط بالتنتلية وبالحصر الملونة التى تغلف بها الجدران (المقرى ج ٤ ص ٢٠٧) .

«١٤٠» المقرى ج ١ ص ١٨٧ .

«١٤١» الادريسى ص١٩٥ .

«١٤٢» ، المقرى ، نفح الطيب ج ٢ ص ٣٥٧ .

«١٤٣» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٦٠ .

«١٤٤» نفس المصدر ص ٢٥٩ .

«١٤٥» المقرى ج ٢ ص ٣٩٥ .

«١٤٦» نفس المصدر ، ج ٢ ص ٣٦١ .

«١٤٧» ابن سعيد ، ج ٢ ص ٢٥٣ .

«١٤٨» نفس المصدر ص ٢٥٤ .

«١٤٩» نفس المصدر ص ٢٥٦ .

«١٥٠» المراكشي ، ص ١٠٢ - المقري ج ٢ ص ١٧٩ .

«١٥١» نفس المصدر ص ٢٩٣ .

«١٥٢» المقري ج ٣ ص ٤٠٥ .

«١٥٣» المقري ج ٣ ص ٣٦٠ .

«١٥٤» نفس المصدر ج ٣ ص ١١ .

*

صورة عن وقعة الاسكندرية فى عام ٧٦٧هـ/١٣٦٥م من مخطوطة «الإلمام» للنويرى السكندرى (١)

الدكتور بول كاله Dr. Paul Kahle

ترجمة وتعليق (٢)

درويش النخيلى

و

أحمد قدرى محمد أسعد

«لا توجد مدينة فى العالم القديم يمكن لها أن تنازع الاسكندرية تصدرها فيما تعرضت له مبانيها من دمار شامل، كما لا توجد مدينة أخرى تنافسها فيما يحيط بطبيعة طبوغرافيتها من شك وغموض» .... وقد أردت أن أبرز أن تخطيط طبوغرافية الاسكندرية لا زالت تواجهه - حتى يومنا هذا - صعوبات جمة، وتكتنفه ألغاز لا نستطيع لها حلا، وقد تبقى هذه الألغاز - إلى وقت بعيد - دون أن نتمكن من الكشف عنها. وعلى هذا، يجب أن يكون تخطيطنا للمدينة مجرد تخطيط تقريبى ومؤقت يقوم على الحدس والتخمين». وهكذا يبين E. Breccia (٣) تلك الصعوبات المتعلقة بطبوغرافية الاسكندرية القديمة. ويرجع هذا - إلى حد كبير - إلى أننا نجهل الكثير عن اسكندرية العصور الوسطى. والمحاولة التى نبذلها هنا لإعادة تخطيط مدينة الاسكندرية القديمة، هى بمثابة محاولة للتعرف على التخطيط الذى كانت عليه المدينة فى العصور الوسطى، وهو التخطيط الذى لم يلق منا - حتى الآن - عناية تذكر (٤).

إلا أن الاسكندرية فى العصور الوسطى كانت - ولا شك - مدينة مزدهرة داخل حدودها الضيقة التى ينتظمها سور المدينة العربى (٥) وخاصة منذ أن أصبحت فى العصر الفاطمى أكبر ميناء تجارى يتبادل نشاطه التجارى مع المدن التجارية

الأخرى فى البحر الأبيض المتوسط . ويكفى أن نذكر فى هذا المقام إعجاب الرحالة الأندلسى ابن جبير بمدينة الاسكندرية فى عصر صلاح الدين (٦) ، وأن نستعيد أيضاً ذلك الوصف الشاعرى الذى سجل به ابن بطوطة انطباعاته عن الاسكندرية ، وهى الانطباعات التى عبر عنها أثناء مروره بها فى عام ١٣٢٦ م وعند عودته إليها فى عام ١٣٤٩ م (٧) .

وقد زار الرحالة الألمانى Ludolf von Sachem الاسكندرية فى عام ١٣٤٠ م ، فخلف لنا فى تقريره الذى كتبه فى عام ١٣٥٠ م (٨) الوصف التالى للمدينة :

« تعتبر الاسكندرية أول مدن مصر البحرية وأعظم مدن السلطان . وهى تقع بالقرب من أحد فرعى النيل الذى ينحدر من الجنة ، وهو النهر الذى يصب فى البحر بالقرب منها . وتتصف المدينة بالجمال الفائق والحصانة الشديدة ، فهى مزودة بأبراج عالية وأسوار منيعة . ويبدو أن سكانها القدامى كانوا من المسيحيين ، بينما يقطنها المسلمون فى الوقت الحاضر . وتمتاز داخل المدينة بحسن الرواء ، إذ يسود البياض لون أبنيتها ، فى حين تتفرع قنوات مياهها الجارية فى كل زاوية من شوارعها . وتلقى المدينة عناية خاصة للاحتفاظ بنظافتها ، إذ يوجد بها المحتسبة الذين يمنعون الناس من إلقاء مايقلل من نظافة شوارعها أو مياهها ، ويحتفظ السلطان فى هذه المدينة ببعض المرتزقة والاتباع لحمايتها هى ومينائها . وتبدو هذه المدينة للوهلة الأولى وكأنها من المناعة بمكان بحيث يستحيل الاستيلاء عليها ، إلا أنها تعرضت لسقوط بالرغم من ذلك » .

ولا نشك فى أن ثمة تطوراً سريعاً حدث فى المدينة ، إذ أورد Emmanuel Piloti - الذى أقام أكثر من ثلاثين عاما فى أراضى المسلمين قضى معظمها بالاسكندرية - فى مقاله " Traité sur le passage dans le Terre Sainte " الذى يوصى فيه البابا يوجين الرابع Eugén IV (١٤٣١ - ١٤٤٧) بأن يبادر بمد يد المساعدة للمسيحيين فى مصر (٩) :

« أدى فساد الحكم الذى فرضه حكام القاهرة على البلاد إلى أن أصبحت الاسكندرية — وهى مدخل دولتهم ومفتاحها — مهجورة من السكان ، بالرغم من أنها مدينة كبيرة وجميلة ، تكتظ بالمنازل المزينة بالنقوش . وتحتوى قصورها الجميلة على الكثير من الرخام والأبنية ذات الزخارف . وبالرغم من ذلك ، فقد نزح عنها سكانها وهجروها . وقد رأيت فى أيامى بيوتاً ومساكن كان الواحد منها يساوى ثلاثة أو أربعة آلاف دوقة Ducas ، ولا يتعرض لها أحد بالشراء إلا للحصول على رخامها المنقوش وغيره من الأشياء الثمينة الموجودة بداخلها . ويرسل هؤلاء ما يأخذونه منها إلى القاهرة عن طريق النيل ، حيث يعيدون استعماله فى قصورهم . ولذا ، يمكن القول بأن الاسكندرية ليست إلا مدينة هجرها سكانها ، وستظل على هذا النحو حتى يأتى المسيحيون ليغزوها ويسكناها ويعيدوها إلى ما كانت عليه من قبل » .

ومن المؤكد أن الاسكندرية قد مرت بها تطورات أساسية فى الفترة من ١٣٤٠ إلى ١٤٤٠ ، وهى التطورات التى كشفت عنها الغارة الفجائية التى قام بها بطرس لوزينان Peter von Lusignan ملك قبرص فى عام ١٣٦٥ والتى كانت بمثابة تذكرة أخيرة للحروب الصليبية. ولقد تسببت هذه الغارة فى تخريب المدينة تخريباً شديداً ، فلم تتمكن من أن تستعيد نشاطها حتى القرن التاسع عشر ، إذ دامت نتائج هذا التدمير لفترات أخرى لاحقة . ففى حوالى القرن الخامس عشر ، أصبح القسم (الحى) العاشر من المدينة خالياً من السكان (١٠) نظراً لما أصاب المدينة من تخريب فى الداخل ، فأصبحت مهجورة ، فى الوقت الذى كانت تتداعى فيه المنازل الواحد بعد الآخر ، حتى لم يعد وسط المدينة يصلح للسكنى ، فقل عدد قاطنيه من الأهالى (١١) .

وتمثل خريطة الاسكندرية التى رسمها فى تقريره الرئيس بيرى (١٢) عن البحرية Bahrije des Piri Re'îs صورة واقعية عن المدينة فى عهد الاحتلال التركى (١٥١٧) ، وهى الخريطة التى قمت بنشرها بعد أن أعددت مسودة للطبعة

الثانية (١٣) ففى داخل سور المدينة ، نرى المسجدين الجامعين ـ حيث أدى السلطان التركى سليم الأول صلاة الجمعة فى الجامع الغربى (١٤) ، وذلك فى يوم الجمعة الموافق ٦ يونية (١٥) ـ كما نرى مرتفعين على بعد قريب من باب البحر . أما فى شرق المدينة عند باب رشيد ، فنرى بعض المنازل التى كانت لا تزال قائمة ، وما دون ذلك فهو خراب .

وقد بدأت أعمال إعادة البناء فى حوالى نهاية القرن السادس عشر خارج سور المدينة فى اتجاه جزيرة فاروس (١٦) وفى القرن السابع عشر ، كان يقع داخل سور المدينة عدة فنادق ومنازل ضخمة استخدمها التجار كمأوى لهم ولخزن بضائعهم . إلى جانب وجود كنيستين وعدة أديرة ومساجد ، أصبحت كلها مأهولة ، بينما لم يعد لهذه الفنادق وجود فى القرن الثامن عشر . وفى الوقت الذى كان فيه القنصل الفرنسى Benoît de Maillet بالاسكندرية فيما بين عامى ١٦٩٢ و ١٧١٨ ، لم يكن يسكن المدينة القديمة أكثر من مائة شخص (١٧) . وقد روى Benoît أن المرء فى ذلك الوقت لم يكن ليستطيع الخروج صباحاً أو مساءً دون أن يعتريه الخوف من أن يتعرض للسرقة . ومن المعتقد أن الأهالى فى تلك الفترة كانوا يقيمون خارج السور فى الاسكندرية الثالثة التى بنيت من بقايا الاسكندرية الثانية ، وهذه الأخيرة أنشئت على أنقاض الاسكندرية الأولى (١٨) . وقد تم تهجير معظم سكان المدينة من الميدان الموجود شمالى السور إلى ذلك اللسان الذى يصل للمدينة القديمة بجزيرة فاروس والذى نما بسرعة بعد ردم الميناء الشرقى بالرمال . وتعطينا الصورة التى رسمها مهندسو الحملة الفرنسية (١٩) عن المدينة فكرة سليمة عن موقعها فى ذلك الوقت .

وكان من نتائج الغارة التى شنها بطرس لوزنيان فى عام ١٣٦٥ م أن المقريزى وابن دقماق ـ اللذين ندين لهما بما أورداه من بيانات دقيقة عن المدن المصرية الأخرى ـ لم يتمكنا من كتابة شىء يستحق الذكر عن الاسكندرية فى عصرهما .

إلا أن هناك مصدراً آخر يقوم مقام ذلك ، إذ هو يشرح لنا ـ بالإضافة إلى

البيانات التفصيلية عن هذه الغـــارة ـ كيف أن الفرنج الذين نزلوا الاسكندرية فى عام ١٣٦٥ م قد أرغموا بغارتهم الدمار الشديد بالمدينة . وتوجد هــذه المعلومات فى كتاب « الإلمام بالإعلام ، فيما جرت به الأحكام ؛ والأمور المقضيه ، فى وقعة الاسكندريه » ، مخطوطة برلين 60 / 359 , II من مخطوطات Wetzstien التى نبهنا إلى وجودها لأول مرة Gildemeister (٢٠) ، وهى المخطوطة التى راجعها P. Herzsohen ثم كتب عنها بحثاً أصدره ونشره له Gildemeister فى «بون» سنة ١٨٨٦ (٢١) . وقد تناول Herzsohen الموضوع بكثير من العناية ، إلا أنه لم يستطع بعد صفحة (٦٧) من بحثه أن يواصل ما بدأ فيه ، إذ مما يلفت النظر أن هذا البحث لا يضيف جديداً (٢٢) .

هذا ، وتقدم لنا مخطوطة « الإلمام » تفاصيل مسهبة عن اسكندرية هذا العصر ، وهى التفاصيل التى سوف ننظر فيها بدقة بغرض الخروج منها بتقديم كل شىء عن الاسكندرية من حيث موقعها ومرافقها وأحيائها المهمة فى ترجمة حرفية . وليس لدينا مصدر عربى آخر نستأنس به ويحتوى على تفاصيل وافيـــة عن الاسكندرية أفضل من مصدر « الإلمام » هذا الذى نأخذ عنه .

وسوف نتناول الموضوع هنا من واقع ما أورده مؤلف « الإلمام » فى كتابه بصفـــة عامة ، وكذلك من واقع الشروح التى قدمها كل من Gildemeister و Herzsohen .

أتى المؤلف إلى الاسكندرية فى عام ١٣٣٧ م واختارها موطناً له . وبقى بها حوالى ثلاثين عاما حتى وقعت الغارة . وقد غادر المؤلف المدينة مع الهاربين من باب البر . ثم رجع إليها بعد انتهاء غارة القبارصة .

ومن الشواهد التى يسوقها صاحب « الإلمام » على ما أصاب المدينة من هلاك ، تلك الجثث الكثيرة التى دفنت بعد الوقعة . وكذلك جيف الحيـــوانات التى كانت مطروحة فى الطرقات بأعداد كبيرة .

وفى فبراير ١٣٦٦ - أى بعد الحادثة بأربعة أشهر ، وحيث كانت الأحداث لازالت عالقة بالأذهان - بدأ المؤلف فى تدوين كتابة (٢٣) ، ولم يحدد نفسه بوصف الحادثة وحدها ، بل نراها قد دفعته إلى استطرادات كثيرة من الناحيتين التاريخية والأدبية . ولهذا ، يعتبر كتاب « الإلمام » موسوعة كبيرة ، إذ يكون الجزءان من نسخة برلين - وتعداد أوراقهما ٢٧٠ ورقة (٢٤) - قسما واحداً من هذا الكتاب ، وبذلك يمكن لنا أن ندرك السبب فى أنه استغرق ثمانى سنوات لينهى كتابه فى عام ١٣٧٤ م (٢٥) .

وقد لاحظت - فيما يختص بطبوغرافية الاسكندرية - أن سور المدينة العربى كان له سبعة أبواب (٢٦) فى القرن الرابع عشر (٢٧) . ويمكن لنا أن نحدد هذه الأبواب من واقع الدراسة التى قام بها Pococke (٢٨) الذى قام بفحص السور فحصاً دقيقاً ، وكذلك بمراجعة ما كتبه علماء الحملة الفرنسية (٢٩) ، وقراءة الخرائط المتأخرة (٣٠) .

ا - السور الشمالى :

١ - باب البحر : وهو المعروف عند علماء الحملة الفرنسية باسم Porte de L'Esplanade ، (أو باب الميدان) ، ويذكره على باشا مبارك فى كتابه (٣١) باسم باب الميدان ، كما يطلق عليه Pococke اسم The Bagnio Gate .

٢ - باب الديوان : وهو إلى الشرق من الباب السابق فى اتجاه الميناء الشرقى ، وقد عرف باسم المبنى الذى كان يوجد بجانبه وهو الديوان ، وهو مذكور عند Machaut باسم Porte dé la Douane (باب الديوان) ، وكان مبنى الديوان (الجمارك) فى ذلك الوقت يقع داخل السور بين باب البحر وباب الديوان ؛ أما Pococke فيطلق عليه The Old Gate .

٣ - الباب الأخضر : ويقع بعد الميناء الغربى (بحر السلسلة) ، وقد عرف

أيضاً باسم باب الغرب ، إذ يطلق عليه Pococke ‏The West Gate .

ب ـ السور الغربى :

٤ ـ باب الخوخة : ويطلق عليه Pococke ‏Gate of Necropolis ، ويسميه علماء الحملة الفرنسية Porte des Catacombes = باب القرافة (٣٢).

جـ ـ السور الجنوبى :

٥ ـ باب السدرة : ويسمى أيضاً باب الشجرة ، ويعرف لدى Pococke باسم Gate of the Pillar ، كما أطلق عليه علماء الحملة الفرنسية Porte de la Colonne = باب العمود ، نسبة إلى أعمدة بومبى المعروفة . ومازال اسم هذا الباب يطلق على شارع باب السدرة فى الاسكندرية الحديثة .

٦ ـ باب الزهرى : وكان يقع إلى الغرب من محطة القاهرة (مصر) الحالية ، وقد أغلق هذا الباب فى عهد متأخر ، ولم يرد ذكره عند Pococke أو فى تخطيط علماء الحملة الفرنسية . وقد أعيد فتحه فى القرن التاسع عشر ، فظهر فى رسومات تخطيط مدينة الاسكندرية الصادرة فى عام ١٨٨٧ من إدارة التنظيم العام (٣٣) باسم باب الصورى . ومن المحتمل أن بعض موظفى التنظيم الاوروبيين قد أخطأ فى كتابة الاسم ، فاعتبر حرف z = ص وحرف h = واواً ممدودة .

د ـ السور الشرقى :

٧ ـ باب رشيد : ويعرفه Pococke باسم Gate of Rosette أو هو Porte de Rosette .

وقد سميت الأبواب الخامس والسادس والسابع باسم أبواب البر .

ويورد مؤلف « الإلمام » سبعة أسباب أدت ـ فى رأيه ـ إلى قيام حاكم قبرس بهذه الغارة على الاسكندرية :

١ ـ يدور السبب الأول حول الذل الذى وقع على النصارى الذميين حين منعهم السلطان الصالح بن محمد بن قلاون فى عام ٧٥٥/١٣٥٤ من الديونة بدواوينهم ، ويبدو أن الفرنج المقيمين بالاسكندرية قد اشتكوا إلى الدول النصرانية بما يقع عليهم من أعباء ثقيلة (٣٤) .

٢ ـ السبب الثانى : يبدو أن بطرس القبرصى الذى تولى بعد موت أبيه ربوك (هيو الرابع المتوفى سنة ١٣٥٩) (٣٥) قد طلب الإذن من السلطان الناصر حسن لبزور مدينة صور ليجلس على عرش هناك ليكتسب لحكمه الصفة الدينية الشرعية عن طريق القيام باحتفال دينى فى هذا المكان ، إلا أن السلطان حسن رفض هذا الطلب (٣٦) .

٣ ـ ومن المعتقد أن السبب الثالث يتلخص فى أن غرابا (٣٧) فرنجيا حاول مهاجمة سفينة بضائع تركية أمام الاسكندرية جاءت فى اتجاه الميناء الغربى (بحر السلسلة) وألقت مراسيها قريباً من الباب الأخضر . وقد أرسل إلى الغراب الأمير سيف الدين بلاط ـ حاكم الاسكندرية ونائب السلطان ، بناءاً على إشارة تاج الدين موسى بن الخازن ناظر المدينة ـ قناصلة الفرنج يستخبرونه عن أمره . ثم تم تزويد سفينة الأعداء بالمؤن كطلبهم ، ولكنهم قاموا بعد ذلك بنهب بعض سفن المسلمين خارج الميناء . وأنفذ السلطان حسن ـ لما نما إليه خبر الحادثة ـ الأمير سيف الدين بكتمر ، الشهير بالوشاق ، إلى الاسكندرية كاشفا ، ولفحص الأمر ، فنزل بدار العدل المجاورة لبيت المال ، وهى التى كان بناها أيام ولايته للمدينة ، فكشف عن الخبر (٣٨) .

٤ ـ ٦ : أما الأسباب من الرابع إلى السادس ، فإنها تقوم على عدة غارات قامت بها سفن الفرنج فى ناحيتى بوقير ورشيد (٣٩) .

٧ ـ ماقام به العوام بالاسكندرية من قتل بعض الفرنج البنادقة المقيمين بها (٤٠) . وقد دفع ذلك البنادقة إلى المشاركة فى حملة القبارصة (٤١) .

ولما أتت الأخبار إلى الأمير زين الدين - حاكم البلد - عن العمارة (٤٢) فى رودس - وكانت دار صناعة الفرنج - قام بتعلية أسوار المدينة بالقرب من الباب الأخضر، وارسل يطلب الإعانة من الأمير يلبغا الخاصكى . وقد قللت هذه الاستعدادات التى قام بها الأمير زين الدين من فاعلية الأخطار، فى الوقت الذى كان فيه الأمير خليل صلاح الدين بن عرام نائب السلطان فى عام ١٣٦٥/٧٦٦ غائباً بسبب الحج - وكان موسم الحج هذا فى نهاية شهر أغسطس من ذلك العام - حيث ناب عنه الأمير جنغرا، بإشارة الأتابك يلبغا الخاصكى . وقد وفد جنغرا إلى الاسكندرية فى شهر يونيه من نفس العام . فلما دخل جنغرا الاسكندرية، رأى طوائفها المتطوعة (٤٣) الحارسة لمينائها تفد عليها بالجزيرة (٤٤)، بقسيهم الجرخ الموترة، وأعلامهم الحرير المنشورة، مع ما بأيديهم من المزاريق (٤٦)، والرماح، والدرق (٤٧)، والصفاح (٤٨)، والزرد النضيد (٤٩)، ومصفحات الحديد . والنفط (٥٠) الطيار الصاعد منه لهب النار . وأقام الأمير جنغرا فى الغرفة التى على باب مسجد تربة طغية (٥١)، حيث كان يشاهد أعمال الناس أثناء الليل . بينما كانت الطوائف المتطوعة تأتى تستعرض صفوفها بانتظام، وقد ارتدى أفرادها ملابسهم الزاهية، فى حين راحت النساء تزغرد تحية لهم (٥٢) .

وفى ٧ من اكتوبر ١٣٦٥ - وكان فيضان النيل فى إبانه، ولا يسهل الاتصال بالقاهرة إلا بالطريق الصحراوى - ظهرت بعض السفن فى البحر أمام الاسكندرية من الشرق والغرب، فاعتقد الناس أنها سفن التجار البنادقة الذين يأتون بمتاجرهم فى مثل هذا الوقت من العام للمبادلة بما يستورده المسلمون من بهار اليمن ويتعوضون عنها من متاجرهم . ولما لم تدخل السفن الميناء، انتاب القلق أهالى الاسكندرية . ثم تحولت السفن - أخيراً - إلى الميناء الغربى (بحر السلسلة) وألقت مراسيها فى منطقة الباب الأخضر (٥٣) .

وقام أهالى الاسكندرية بتعزيز أسوار وأبراج المدينة التى تتجه إلى ناحية البحر برماة قسى الجرخ (الجرخية)، وارسل الفرنج قارباً من سفنهم ليجس الميناء بقميرة (٥٤)، فهزم . وأضيئت أسوار المدينة ليلا (٥٥) .

وظل عـدد كبير من أهـالى الاسكندرية طوال الليل فى الجزيرة ، كما تواجدت أعداد كبيرة من باعة المأكولات . وفى صباح يوم الجمعة ، وصل جمع من العربان ، فصاروا يتطاردون بخيولهم ، ثم خرجوا من الباب الأخضر (٥٦) .

وقد أشار عبد الله - زعيم التجار المغـاربة - على الأمير جنغرا بإخلاء الجزيرة والانسحـــاب إلى ماوراء أسـوار المدينـــة إلى أن تحضر النجـــدة العسكرية من القاهرة (٥٧) .

ولـكن أصحاب الربط بالجـزيرة اعترضوا على هذا الرأى ، إذ لم يرغبوا فى ترك ربطهم ، وبينوا كيف أن المغاربة قـــد تسببوا فى إخـراب بلدهم طرابلس عندما أخذها الفرنج (٥٨) ؛ فرفض جنغرا اقتراح التاجر عبد الله ، وترك النـــاس أمام سور المدينة (٥٩) .

ثم تحركت سفينة قيادة العدو متجهة إلى اليابسة ، ونزل جماعـــة من المغاربة الى الماء وأمسكوا بالسفينة ، فبدأ القتـال (٦٠) . إلا أن الزراقين (٦١) لم يستطيعوا حماية المغاربة حماية كافية . فقضى الفـرنج - بالسفينة - عليهم ، وتمكنت سفينـــة العدو نتيجة لذلك من أن ترسوا بالشاطىء ، ثم تبعتها السفن الواحدة الو الأخرى ، فنزلت القوات من المراكب بخيلها ، ورمت الخيالة على المسلمين بالسهام ، يقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام (٦٢) .

ولم يكن المسلمون قد اعتدوا بأسلحتهم تمـاماً ، فلم يستطيعوا القيام بأى إجراء مضاد إزاء أصحاب الدرق الرجالة . ثم سارع العربان بالفـرار على خيولهم ، كما بدأ الاهالى يتزاحمون هاربين فى اتجاه السور (٦٣) .

وسوف أورد هنا بعض الإشارات المستمدة من تفاصيل عمليات القتـال التى وصلت إلينا . ومنها أن جماعة من رماة قاعة القرافة المتطوعة حوصرت فى أحـــد الاربطة خارج باب البحر بالجزيرة (٦٤) ، وقامت جماعة المسلمين بالدفاع عن الرباط من أعلاه . وروى ذلك عبد الله بن الفقيه أبى بكر - قيم مسجـد القشميرى - وكان

مختفياً بضريح الرباط المذكور قريباً من محمد الخياط الذى لم يمسه الفرنج بسوء مراعاة لصغر سنه ، ولكنهم أخذوه أسيراً . وقد أخبر بهذا - فيما بعد - الشيخ أحمد ابن النشاتى شيخ رماة قاعة القرافة (٦٥) .

وشهد الأمير جنغرا - وقد جرح أثناء القتال الذى دار بالجزيرة - عملية هروب الأهالى ، فندم على ما اقترفه من خطأ . وحاول أن يصل إلى ناحية المطارق المواجه لدار السلطان (٦٦) - غربى الاسكندرية من ظاهر سورها - خائضاً بفرسه فى الماء ومن تبعه من المسلمين فدخل الاسكندرية من باب الخوخة ، فأتى بيت المال - الواقع فى غرب المدينة - وأخذ ما كان فيه من ذهب وفضة وأخرجهما من الاسكندرية (٦٧) .

وأخرج الجبلية تجار الفرنج وقناصلتهم المقيمين بالاسكندرية - وكانوا حوالى خمسين نفراً - من باب البر ، وجهوهم إلى ناحية دمنهور . وقد أجبرهم الجبلية على الإذعان لهم بعد أن ضربوا - أى الجبلية - عنق واحد منهم (٦٨) .

وفى أثناء ذلك ، نزل العدو على السور الشمالى ، وحاولوا إشعال النار فى باب البحر ، فعمدوا إلى براميل الخشب المفعمة بالمواد المشتعلة يدحرجونها نحوه بأسنة رماحهم ؛ إلا أن المدافعين عن السور تمكنوا من صدهم . فما كان من الفرنج إلا أن تراجعوا متجهين إلى الميناء الشرقى ، حيث وجدوا مكاناً من السور قد خلا من المدافعين ومن خندق يعوقهم عن تسلق هذا الموضع منه . فما كان منهم إلا أن تقدموا فى اتجاه باب الديوان فأحرقوه ثم اقتحموه ، فى الوقت الذى صعدوا فيه على السور بعد أن نصبوا عليه السلالم الخشبية المفصلة [المركبة بعضها فوق بعض (٦٨أ)] ويرجع السبب فى ترك هذا الموضع بدون حراسة إلى أن شمس الدين بن غراب - كاتب الديوان - وشمس الدين بن أبى عذيبة - ناظره - قد أمرا بإغلاق باب الديوان المذكور خوفاً من أن يتمكن التجار من تهريب بضائعهم منه إلى المدينة دون أن يسددوا مايفرض عليها من رسوم . ولقد شاع الاعتقاد - بعد الوقعة - أن ثمة خيانة حدثت ، إذ يورد مؤلف « الإلمام » أن حاكم قبرس قد حضر

بنفسه إلى الاسكندرية كأحد التجار ، ونزل عند ابن غراب ، فأتاح له ذلك فرصة التعرف على أحوال المدينة . وعلى كل حال ، تأثر الأمير صلاح الدين ابن عرام بما شاع عن خيانة ابن غراب ، فاتخذ ذلك شاهداً على إدانته ، فأمر بأن يوسط (٦٩) ابن غراب وتعلق جثته على باب رشيد . ومما يلفت النظر عن هذه الشائعة التي سرت بين المصريين ، ما أورده Machaut عن شخص يدعى بيرسفال الكولوني Perceval de Coulogne ـ وكان قد أخذ أسيراً قبل الوقعة ـ من أنه كان في استطاعته التجول في المدينة بحرية تامة ، فساعده ذلك على أن يحيط الملك القبرسي علماً بمواطن ضعف المدينة في شرقي السور الشمالي (راجع : Vs. 2766-2799) . إلا أن ثمة حقيقة لا يمكن تجاهلها ، وهي أن الأبواب التي كان ينتظمها هذا السور كانت مغلقة بإحكام لدرجة استحالة دخول أي فرد من الجزء الباقي من السور إلى المواضع الأخرى بين هذه الأبواب (٧٠) .

وحالما رأى المسلمون العدو على السور ، اعتقدوا أن المدينة قد سقطت ، فراحوا يتلمسون الخلاص هاربين من أبواب البر الثلاثة : باب السدرة ، وباب الزهري ، وباب رشيد . فتمكن الفرنج بذلك من احتلال باب السدرة حيث نصبوا عليه الصلبان . وقد سجل لنا Machaut (Vs. 2980 ff) ما قام به الفرنج من هجوم في اتجاه باب السدرة حتى وصولهم إلى القناة التي يقوم عليها الجسر الواقع جنوبي هذا الباب (٧١) .

ثم تحول الفرنج يقتحمون أبواب المنازل المغلقة ، ينهبون ما فيها ، كما نهبوا المتاجر والفنادق ، وحملوا ما وجدوه على الجمال والبغال والحمير ، وقتلوا من كان مختبئاً ، وعرقبوا الخيول والثيران ، وأشعلوا كذلك النار في القياسر (٧٢) والخانات (٧٣) ، وكسروا القناديل بالمساجد والجوامع ، وثبتوا على الأسوار أعلام الصلبان ، وأسروا الكثيرين من الأهالي . وقد استغرقت عمليات السلب والنهب والخطف من بعد ظهيرة يوم الجمعة حتى يوم السبت (٧٤) الموافق ثاني صفر (٧٥) .

ولما كان لما أورده مؤلف « الإلمام » ـ عما أنزله الفرنج من تدمير بالمدينة ـ أهمية بالغة ، رأينا أن نسوقه هنا مترجماً ترجمة حرفية :

{... فكان مما أحرقوه : حوانيت الصرف بكمالها ، وسوق القشاشين بالمعاريج (٧٦) ، والحوانيت الملاصقة لقيسارية الأعاجم من خارجها من الجهة الشرقيـة ، وحوانيت شارع المرجانيين وبعض فنادقه ، وفندق الطيبية (٧٧) ، مع فنـــدق الجوكندار ، وفندق الدماميني بسوق الجوار (٧٨)، ووكالة الكتان المقـابلة للجامع الجيوشي (٧٩) بالقـرب من المطارين ، مع سوق الخشـابين . وأحرقوا أيضاً درابزي (٨٠) مدرسة ابن حباسة ، مع سقف الإيوان ، وعبثوا بكل ناحية ومكان ؛ وأحرقوا باب مدرسة الفخر القريبة من باب رشيد ، وعبث بإحراق حوانيت المحجة كل عاج مريد (٨١) ... (١٠٨ ب) ثم إن الملاعين أحرقوا فندق الكيتلانيين (٨٢) ، وفندق الجنويين ، وفندق الموزة ، وفندق المرسيليين ، فصارت النار تعمل فى البندق والبضائع التى لم تجد لها الفرنج محلا معهم لإشحان مراكبهم بما أخذوه من أموال الاسكندرية . ثم كسرت الفرنج أيضاً حوانيت الشماعين (٨٣) والبياعين (٨٤) ، بعـــد نهب قياسر البزازين ، وكسروا مافيها من الأوعيـــة والأوانى والأحقاق والبرانى ، فصارت ملقاة مطروحة فى الطرقات ، قد سال مافيها من زيت وعسل وسمن وغـــير ذلك . وكسروا أيضاً حوانيت الصاغة ، وأخـذوا مافيها من مال ومصـاغ . كما أخذوا من حوانيت الصرف مافيها من ذهب وفضة ، ونهبوا أيضاً الحرير الذى قدمت به تجار الأعاجم وغـيرهم إلى الاسكندرية ، وكان ذلك عدة قناطـــير . ونهبوا من الدور الأموال والأقمشة والمصاغ والفرش والبسط والنحاس وغيره ، وأخذوا معهم باب المنار الذى كان عمـره الأمير صلاح الدين بن عـرام قبل الوقعـة على الأساس الذى كان أسسه الملك المنصور قلاون (٨٥) وبطلت عمارته ، فعمل ابن عرام على الأساس المذكور حصناً دائراً وعمل له الباب المذكور . ثم أخـــذ الفرنج شبابيك قبة تربة الأمير طغية التى بالجزيرة ، وأحرقوا سقوف الربط التى بها - وهى التى خافت عليها أصحابها (٨٦ من الفرنج قبل نزول الفـــرنج ٨٦) من مراكبهم - وكسروا قناديلهـا وقناديل المزارات . وأفسدوا قصور الجزيرة وتربها ، وكسروا أعمدة قبة منبر (٨٧ مصلى العيد وعمودى ٨٧) ضرائح قبة تربة الأمير طغية والأمـــير بلاط اللذين (٨٨) فيهما تاريخ وفاتهما ، وكانا مموهين بالذهب واللازورد . وقلعوا حلقتى باب المدرسة

الخلاصية التي عمرها نور الدين بن خلاص ـ وكانا من النحاس المخرم ـ فعمل لباب المدرسة المذكورة غيرهما بعد عدة أشهر من حين الوقعة ، وأخــذوا منها كرسى الربعة وبابها ، وكانا من النحاس الأندلسى المخرم ، المنزل فيهما البقـات (٨٩) الفضة بدايرهما ، لم ير مثلهما حسن صنعة وتدقيق تخريم ، (١٠٩ أ) وتركوا أجـزاء الربعة الثلاثين جزءاً (٩٠) مطروحة بالمدرسة المذكورة، لم يأخذوا منها جزءاً واحداً.

وصعدوا صومعة المدرسة النابلسية ، فوجدوا فيها (٩١) جمال الدين ـ ابن بانيها ـ مختفياً منهم ، وكان شيخاً كبيراً ضعيف البنية ، فألقوه على رأسه من أعــلاها إلى الأرض ، فاندقت عنقه ، فـمـات شهيداً ـ رحمه الله ـ وقتــلوا من وجــدوه بالجوامع والمساجد .

وأقاموا بالاسكندرية المرابد (٩٢) ، فقتلوا الناس فى الدور والحمامات والشوارع والخانات . وكانت الفرنج تخرج بالنهب من الاسكندرية إلى مراكبهم عــلى الإبل والخيل والبغال والحــمير . فلما فرغوا من النهب ونفضــوا أيديهم (٩٣) عن البلد ، طعنوها بالرماح ، وعرقبوها بالصفاح ؛ فصارت مطروحة بالجزيرة والبلد (٩٤) ، لم يعلم لها عدد ؛ فهلكت وجافت ، فأحرقتها (٩٥) المسلمون بالنار لزوال رائحة جيفها .

ثم إن الفرنج تحصنوا بمراكبهم بعد وقرها وإشحانها بما نهبوه ، وكانت تزيد على سبعين مركباً (٩٦) ، وتركوا بالساحل فضلات البهار التى لم يجدوا لها محلا ، فرجع إلى أربابه ، من وجد علامة (٩٧) عليه أخذوه .

ثم إن مراكب الفرنج ثقلت بما فيها ، فصاروا يلقون ما فيها (٩٨) فى البحــر ـ عـلى ما قيل ـ لتخف من كثرة الوسق . وكانت الغواصون يرفعون النحاس وغيره بناحية بوقــير .

ولولا لطف الله ـ تعالى ـ بعباده المسلمين ، بحرقهم باب رشيد وباب الزهرى ، كانت الفرنج ملكت البلد ، وحصل التعب فى خلاصها { منهم كما حصل } (٩٩) فى طرابلس الغرب (١٠٠) ومدينة أنطاكيا ببر التركية . . . (١٠١)

ولطف الله ـ تعالى ـ ﴿ أيضاً بعباده المسلمين ﴾ (٩٩) فى عدم معرفـة الفرنج لقصر السلاح (١٠٢) الذى بالموضع المعروف بالاسكندرية بالزريبة (١٠٣) ، فلو فهموه أحرقوا جميع مافيه من السلاح المدخر من عهد (١٠٤) الملوك السالفة ـ رحمة الله عليهم ـ فلقد وضعوا فيه من الأسلحة الكثيرة ماليس لعددها حصر .

ذكر أبو العباس أحمد ـ شيخ رماة قاعة القرافة المرصدة (١٠٥ لسلاح الجهاد المتطوع به ١٠٥) : بها ستون (١٠٦) ألف سهم من بعض السهام التى فى أحد بيوت قاعة من قاعاته . قيل إن فيه عدة قاعات ، فى كل قاعة عدة بيوت ، فى كل بيت آلاف مؤلفة من السهام ، إلى غيرها من السيوف ، والرماح ، والأتراس ، والخوذ ، والعنابر (١٠٧) ، والزرد ، والزرديات (١٠٨) ، (١٠٩ ب) والأطواق ، والقرقلات (١٠٩) ، والسواعد (١١٠) ، والركب (١١١) ، والساقات (١١٢) ، والأقدام الحديد (١١٣) والقسى الملوابة (١١٤) ، والجرخ (١١٥) ، والركاب (١١٦) ، والأعلام ، مالاينحصر بالأقلام . ثم فيه أيضاً من حجارة المسلاج (١١٧) ، والمدافع ، والنفط ، وحيل الحروب ومكائدها (١١٨) كثير (١١٩) .

فلو علمت به الفرنج أحرقته سريعاً ، فحصل اللطف الكبير ، من اللطيف الخبير ، لعدم معرفتهم إياه بعد أن أتوا إلى بابه ، ظنوا أنه أحد أبواب المدينة ، خافوا من كسر بابه ليكون وراءه كمين (١٢٠) يطبق عليهم (١٢١) .

قال المؤلف ـ غفر الله له ولوالديه والمسلمين أجمعين ـ : حدثنى الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن يوسف ـ حارس القصر المذكور ، ويعرف بابن قراجا ـ قال :

« كنت بمفردى لما دخلت الفرنج الاسكندرية ، فأغلقت بابه ، وقرأت حزب سيدى الشيخ الصالح أبى الحسن الشاذلى (١٢٢) ، وإذا الفرنج أتوا إلى الزريبة (١٢٣) فيهم خيالة ومشاة وكنت صعدت أعلى (١٢٤) القصر ، فصرت أنظر إليهم من شقوق فى حائطه ، فطلع بعضهم على زلاقـة بابه ، وصاروا يتشاورون فى أمره . وكنت أعددت لنفسى مكاناً أختبىء به إن دخلوه ، لكن خفت بأن يحرقوه فأهلك بالنار ؛ فوقفوا ساعة ، وتركوه ومضوا . . . »

نعود إلى ذكر ما أحرقته الفرنج أيضاً بالاسكندرية : وذلك أنهم أحرقوا أبواب البحر (١٢٥) الأول والثانى ، وأبواب الباب الأخضر الثلاثة ، وباب الخوخة ، والمجانيق (١٢٦) التى كانت بالصناعتين الشرقية والغربية . وكانت أهل الاسكندرية وقت هزيمتهم أخرقوا أغربة كانت بالصناعة الشرقية لئلا تأخذهم الفرنج . فلما رأتهم الفرنج محروقة ، أحرقتهم بالنار . ثم أحرقت الفرنج أيضاً دار الطراز والديوان بعد أن أخذوا ما فى دار الطراز من الاستعمالات (١٢٧) الرفيعة الأثمان ، وأحرقوا أيضاً قاعة ضرغام (١١٠ أ) والمكان المعروف بالكدس (١٢٨) وكان برسم الاستعمالات أيضاً » (١٢٩) .

وقد ذكر مؤلف « الإلمام » أن الفرنج مكثوا بالاسكندرية حوالى ثمانية أيام ، ثم سارعوا بالرحيل عندما شاهدوا اقتراب الجيش المصرى لنجدة المدينة ، فأقلعت سفنهم تحمل ـ علاوة على مانهبوه من المدينة ـ نحو خمسة آلاف أسير استرقوهم وباعوهم فى بلاد الفرنج (١٣٠) ، كما يذكر المؤرخون المصريون تلك الاستعدادات الحربية الكبيرة التى قام بها سلطان مصر بعد الوقعة ؛ فقد حضر السلطان إلى الاسكندرية ، وأشرف بنفسه على ترميم ما خربه الفرنج ودمروه (١٣١) . وقد أرغم التجار النصارى على الاسهام فى جمع مبالغ كبيرة من الأموال لفداء الأسرى ، كما ألقى وجوههم فى الحبس ، وأنفذ ـ فى نفس الوقت ـ البطريرك إلى قبرس ليرأس مباحثات افتداء الأسرى . وانتهى الأمر أخيراً بعودة العلاقات التجارية بين مصر والدول الأوربية المسيحية .

وكنت قد أشرت أكثر من مرة إلى أن الاسكندرية لم تتمكن من استعادة مكانتها السابقة رغماً عن المحاولات العديدة التى بذلت فى ذلك ، ورأينا كيف انكمشت المدينة وزادت إقفاراً داخل سورها العربى . ولقد أدى اكتشاف البرتغاليين للطريق البحرى إلى جزر الهند الشرقية إلى أن فقدت مصر مركزها التجارى ، كما فقدت بعد ذلك استقلالها لتصبح مجرد ولاية تابعة للامبراطورية التركية (العثمانية) فى عام ١٥١٧ . وقد أفضى هذا كله إلى أن تحددت المدينة بذلك

الميدان الصغير الموجود خارج الأسوار ، ولم يبلغ تعـــدادها سوى بضعة آلاف من السكان .

وقد كان ماعرضناه الآن بمثابة مثل حى عن سقوط مدينة أثرية عالمية ، تمتعت بمكانة عظيمة فى العصور الوسطى . ويهمنا من كل ذلك أننا تتبعنا عملية سقوطها بشىء من التفصيل ، بعد أن أدى هجوم الفـــرنج عليها إلى افتقارها الكامل وتدهور القسم القديم منها تدهوراً كاملا (١٣٢) .



الحـــواشى*

١ - ﴿ أصدر Kahle هذا المقال بعنوان :

Die Katastrophe des Mittelalterlichen Alexandria, in Mélange Maspero, III, Orient Islamique, pp. 137 - 54, Institut Français, Le Cairè 1940.

- المترجمـــان ﴾

٢ - ﴿ راعينا عند ترجمة المقال من الألمانية إلى العربية - والذى يحتوى أيضاً على نصوص بالفرنسية الحديثة ، والفرنسية الوسيطة ، واللاتينيـــة - ألا نغفـــل إيراد النصوص من نسخة برلين لمخطوطة « الإلمام » التى رجع إليها Kahle فى مقاله حتى تسهل المقارنة بما أورده . وفى نفس الوقت ، قمنا بالتعليق فى بعض المواضع وبشرح بعض المصطلحات والألفاظ لجلاء معناها. ويهمنا أن نشـــير هنا إلى أن نسخة برلين التى استأنس بها Kahle لاتحمل اسم مؤلفها (وهو محمد بن قاسم بن محمـــد النويرى المالكى السكندرى) مما حدا بالكاتب إلى اغفال اسمه فى مقاله ، ولكنه يستدرك ذلك فى الحاشية الموجودة بآخر هامش فى هـذا المقال . ومما يلفت النظر أيضاً ، أن نسخة الهند من مخطوطة « الإلمام » تحمل خطأ اسماً غير اسم المؤلف ، فجـــاء فى صفحة العنوان : (. . . تأليف الشيخ الإمام ، سلطان العلماء الأعـــلام ، رحلة (كذا) المحدثين القدوة ، أبو عبد الله محمد بن عمر بن زين الدين الواقدى، رحمة الله عليه) . وتوجـد نسخة ثالثة محفوظـــة بدار الكتب المصرية بالقاهرة تحمل رقمين هما : ٢٨٥٥٨ (عمومية تاريخ) و ١٤٤٩ (خصوصية تاريخ) لم يثبت فيها أيضاً اسم المؤلف ، إذ يرد فى صفحة العنوان : (تأليف الشيخ الإمام العلامه ، العمدة الهمام الفهامه ؛ رحمه الله تعالى وأرضاه ، وجعل الجنـــة مثواه ؛ وأعاد علينا من بركته ، آمين) . ولكن فى صفحات النسخ

* كل ماجاء محصوراً بين هلالين ﴿﴾ بالحواشى هو من تعليقات وشروح المترجمين .

الثلاث : برلين ، والهند ، ودار الكتب ، ما يثبت به اسم المؤلف ومسقط رأسه - النويرة - ونزوحه إلى الاسكندرية حيث أقام وشاهد بعض أيام الوقعة المذكورة . أما العنوان الكامل للمخطوطة ، فهو يختلف فى قليل - أو كثير - من نسخة إلى أخرى ؛ فهو فى نسخة برلين - التى رجع إليها Kahle -: (هذا كتاب الإمام العلامة فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى وقوع الاسكندرية) ؛ وفى نسخة الهند (كتاب مرآة العجائب وأحاسن الحمار (كذا) ... وذلك بالإلمام ، فيما جرت به الأحكام ؛ المقضيه ، فى وقعة الاسكندريه ؛ مع ما أضيف إلى ذلك من الاستطرادات ، المستحسنات ؛ الحاوية لأصناف الفنون والعلوم الأدبية والتاريخ والأنساب والأخبار والمسالك ، وتدبير الممالك ؛ وللملوك والدول والرعية ، وغير ذلك مما لا بد للفاضل الرا . . . عليه ، فيما يحتاج إليه ؛ ولا يستغنى عنه) ؛ وفى نسخة دار الكتب : (كتاب الإلمام ، بما جرت به الأحكام ؛ المقضيه ، فى وقعة الاسكندريه ، فى سنة سبع وستين وسبعمايه ، وعودها إلى حالتها المرضيه ؛ مع ما أضيف إلى ذلك من الواردات ، المستطردات) . وتوجد نسخة رابعة من هذا الكتاب - عبارة عن مستخرج لا يزيد عن بضع ورقات - هى نسخة المتحف البريطانى بلندن تحت رقم ٦٠٦ ، وتحتوى على وصف لبلاد الهند . هذا ، وتوجد صور شمسية بمكتبة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، للنسخ الثلاث الأولى المذكورة ، فتحمل نسخة برلين رقم ٦٦٧ م ؛ ونسخة الهند رقم ٧٣٨ م ؛ ونسخة دار الكتب (وهى الجزء الأخير منها) رقم ٧٢٧ م . أما نسخة لندن ، فيوجد منها صور شمسية محفوظة بمكتبة ورثة المرحوم الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال .

ولعل أصح عنوان لكتاب « الإلمام » هو ما ورد فى نسخة برلين (١٠ أ) حيث ينص عليه النويرى فيقول : « . . . ولما كمل هذا الكتاب ، الذى هو نزهة لأولى الألباب ، سميته : (كتاب الإلمام بالإعلام ، فيما جرت به الأحكام ؛ والأمور المقضيه ، فى وقعة الاسكندريه ؛ مع ما أضيف إلى

ذلك من الاستطرادات المفيدات ، والموضوعات المستحسنات . . . » بينما ورد فى (١٠ ب) من نسخة المنذ : (كتاب الإلمام ، فيما جرت به الأحكام ، والأمور المقـ[ضية ، فى وقم]عة الاسكندريه ؛ مع ما أضيف إلى ذلك من الاستطرادات ، المستحسنات . . .) .

ولا يفوتنا أن ننوه هنا بأننا رجعنا فى مواضع من الترجمة والتعليق إلى أستاذينا : الدكتور السيد عبد العزيز سالم أستاذ التاريخ الإسلامى المساعد بكلية الآداب جامعة الاسكندرية ، والأستاذ راشد فضيل أمين المتحف بالكلية ، فلزمنا الشكر لهما لما بذلاه من مساعدة - لا تنسى - لتوضيح بعض ما غمض علينا . كما لا يفوتنا - أمانة - أن نشير ، إلى أن أستاذنا الراحل الجليل ، الدكتور جمال الدين الشيال - أستاذ التاريخ الإسلامى ، وعميد كلية آداب الاسكندرية سابقاً - كان على نية إخراج كتاب « الإلمام » كاملا بعد تحقيقه ؛ فقد شرع فيه ، ولكن المنية عاجلته - رحمه الله - قبل الفراغ منه : المترجمان ﴾ .

٣ - Alexandrea ad Aegyptum, Bergamo, 1914, p. 49,54.

٤ - نورد مثالا على ذلك ما اورده Breccia فى معرض كلامه على ماساقه محمود الفلكى عن وصف شوارع المدينة ، إذ يقول Breccia : « يجب أن نلاحظ - قبل كل شىء - أن عملية وصف شوارع المدينة التى كشف عنها محمود الفلكى لا تنتمى للعصر البطلمى ، وإنما ترجع إلى العصر الرومانى » (انظر : ص ٦١) . ومن المشاهد ، أن محمود الفلكى لم يلتفت إلى ضرورة الاهتمام - بالدرجة الأولى - بتخطيط شوارع المدينة العربية ، إذ يقول خليل الظاهرى - الذى أصبح حاكما للاسكندرية فى عام ١٤٣٥ - فيما يختص بهذه الشوارع : « وهى مدينة مركبة على العمد ، وشبهها بعضهم برقعة الشطرنج لأن جميع شوارعها وأزقتها نافذة بعضها إلى بعض » (زبدة كشف الممالك ، نشر Ravaisse ، باريس ١٨٩٤ ، ص ٤٠) .

ومن المؤكد أن معالم هذه الشوارع كانت ظاهرة بوضوح فى ذلك الوقت بالرغم

عما أصابها من تدمير على يد الفرنج ، بينما اختفت معالمها نهائياً فى القرون التالية .
هذا ، وتطابق شوارع المدينة الرئيسية فى العصر العربى ما كان يعرف قديماً بالشوارع الرومانية . ومن الواضح أن محمود الفلكى عندما شرع فى أبحاثه عن تخطيط المدينة ، كان قد شاهد ـ أول ما شاهد ـ تلك الشوارع التى لا تحمل سوى الطابع الذى كانت عليه فى العصر العربى .

٥ ـ راجع مقالى :

Zur Geschichte des mittelalterlichen Alexandria (Der Islam, Bd. XII, Berlin 1921, S. 29 ff) .

٦ - The Travels of Ibn Jubair. Ed. Wright - de Goeje, 1907, S, 40 - 43,

٧ - Ed. Defrémery et Sanguinetti, I, 27 - 48.

٨ - Ludolfi Rectoris ecclesiae parochialis in Suchem : De itinere Terrae Sanctae liber. Nach alten Handschriften berichtigt herausgegeben von Friedrich Deychs, Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart, XXV, 1851, S. 35.

٩ - Monuments pour servir à l'Histoire des Provinces de Namur, de Hainot et de Luxembourg, t. IV , Bruxelles 1846, p. 351 f.

١٠ - Tucher (1479) ; vgl. Feyerabend, Reyssbuch, S. 368 f.

١١ - Felix Fabri (1483) ; vgl. Evagatorium . . . Stuttgart, 1879, III, 138 ff.

١٢ - (كان بيرى رئيس ـ أو الرئيس بيرى ـ أحد أمراء البحر العثمانيين

فى عهد السلطان سليمان القانونى ، وعين فى سنة ٩٥٩ هـ / ١٥٥٢م قبودانا ببحرية الإيالة المصرية ، وله كتابان فى الجغرافية عن كل من بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط ، تناول فيهما بالدراسة تياراتهما البحرية ، والأعماق فيها ، ومواانيهما ، كما عنى فى كتابيه بوصف أحسن أماكن رسو السفن فى البحرين المذكورين وذلك من واقع مشاهداته الشخصية ؛ انظر : Edward S. Creasy, History of the Ottoman Turks, p. 179, London 1878 اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، ص ٤١ ، هـ ١ ، الطبعة الأولى ، بولاق ، القاهرة ١٣١٤ هـ المترجان) .

١٣- Paris, Suppl. turc 956, fol. 357 b / 358 a.

(انظر هذه الخريطة التى نشرها Kahle فى أواخر لوحات نفس الدورية التى أصدر فيها مقاله تحت عنوان :
Alexandria nach Piri Re'is - المترجان) .

١٤- كان أصل هذا الجامع كنيسة هى كنيسة ثيوناس Theonas التى شيدت فى الفترة مابين ٢٨٢ و ٣٠٠ م وكانت مقراً للبطريركية فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، ثم تحول بعدهما مقر البطريركية إلى كنيسة Caesareum . ويوجد لهذا الجامع تخطيطات ورسوم فى الأطلس الموجود فى Description de l'Egypte, Antiquités, V, pl. 36 f. . وقد حول محمد على هذا الجامع إلى مستشفى لقوات الجيش البرية والبحرية . أما إسماعيل فقد جعل منه فى عام ١٨٧٢ تكية للفقراء ومعسكراً للشرطة . ثم منحه توفيق فى عام ١٨٨٤ لجماعة الفرنسيسكان الذين قاموا ببناء كنيسة فيها تخليداً لذكرى القديس فرانسيس الأسيسى Franz von Assisi . راجع على باشا مبارك ، ج ٧ ، ص ٤٣ ؛ Neroutsos Bey, S. 61-65 ; Botti, S. 98 ff. ; Breccia, S.45 f.

١٥- Feridûn, I, 438 (1. Druck), I, 490 (2. Druck).

١٦- Helferich (1565) bei Fèyerabend, Reyssbuch S. 396 f.

١٧- De Maillèt, Description de l'Egypte . . . par Le Mascrier, Paris, 1735, p. 149 f.

١٨- ﴿ المقصـــود بالاسكندرية الأولى اسكندرية العصرين البطـــلمى والرومانى ؛ وبالثانية الاسكندرية الإسلامية التى أقيمت مبـانيها على أنقـاض الاسكندرية الأولى ؛ وأما الثالثة فهى الاسكندرية فى العصر الإسلامى المتأخر والتى شيدت مبانيها من مخلفات الاسكندرية الثانية ـ المترجمان ﴾ .

١٩- Description de l'Egypte, 2ᵉ éd., Atlas, Etat Moderne. t. II, pl. 84.

٢٠- راجـــع :

J. Gildemeister, Uber arabisches Schiffswesen, in Nachrichten der Kgl. Ges. d. w. in Gottingen, vom 28. Juli 1882, S. 425 - 448.

٢١- P. Herzsohèn, Der Uberfell Alexandrien's durch Peter I, Konig von Jerusalem und Cypern, Bonn 1886.

٢٢- اهـــتم von Géorgius J. Capitanovici بمخطوطـــة الإلمام ، فأصـدر كتابه : Die Eroberung von Alexandria (Iskandrije) durch Peter I. von Lusignan, Konig von Cypern 1365, Berliner Diss. von 1894. ولم يكن يعرف اللغة العربيـــة ، فاضطر إلى الاستعانة بتلك النبـذ المياسرة التى قدمها له B. Moritz ، ممـــا أدى إلى انحصار ما كتب فى نطاق ما أخذه عن الكاتب الأخير .

٢٣- ﴿ يترجم النويرى لنفسه فى بعض المواضع من كتابه « الإلمـام » ، فيذكر ـ ضمن مايذكر عن نفسه ـ أول دخوله الاسكندرية ، وسبب تأليفه

لكتابه ، وتاريخ البدء فيـه والفراغ منه ، فيقول :

« (١٢٠ أ) ... وكان السبب لتأليف هـذا الكتاب ، طـول إقامتى بالاسكندرية ، وحبى لهـا ولأهلها ، فإنى دخلتها فى ذى الحجة سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، بسبب زيارة الصالحين ورؤيتها ... (١٢٠ب) فأحببتها حينئذ وسكنتها ، وألفت هذا الكتاب بهـا ، وابتدأته فى جمادى الآخر سنة سبع وستين وسبعمائة ، إلى فرغت منه فى ذى الحجة سنة خمس وسبعين وسبعمائة. ثم اخترت سكناها أيضاً حبا فى المرابطة لقول عبد الله بن عمر - رضى الله عنهما - : « فرض الجهـاد لسفك دماء المشركين ، والرباط لحقن دماء المسلمين ؛ وحقن دماء المسلمين أحب إلى من سفـك دماء المشركين » . ثم ازددت فى سكناها حباً لقول الشاعر :

أرى الاسكندرية ذات حسن ∴ بديـع ماعليـه من مزيد
هى الثغر الذى يبدى ابتساما ∴ لتقبيـل العفـاة من الوفـود
إذا وافيتهـا لم يبـق همـا ∴ بقلبك مـذ تراها من بعيـد
حللت بظاهـر منهـا كأنى ∴ حللت إذاً بجنـات الخلـود
فلا بئر معطلة وكـم قـد ∴ رأيت هنـاك من قصر مشيـد
بيـاض يملأ الآفاق نـورا ∴ يبشر برقـه بسحاب جـود
فأقسم لو رأتهـا مصر يوما ∴ لكاد[ت] أن تغيب عن الوجود
وكـم قصر بها أضحى كحصن ∴ منيـع لا كزرب من جريد
يرص فصوصـه بانيه رصـاً ∴ يفضلـه على نظم العقـود
لها سـور إذا لاقى الأعادى ∴ يقـابلهم بوجه من حـديد
هو الفلك استدار بها وكم قـد ∴ رأينـا فيـه من برج سعيـد
أحاط بسورهـا بحـر أجاج ∴ ومنهل أهلها عـذب الورود
هم السـادات لا يرجـى ويخشى ∴ سواهم عند وعـد أو وعيد

لجمالـــها حسنها وكثرة خيرها أن سكنتها ، وتأملت بها ؛ ونسخت لأكابرها في ساحتها المنيره ، كتباً كثيره ؛ ثم خرجت منها مع من خـــرج من الوقعة من باب برها ـ لعدم إلقاء النفس في المهلكة ، لما لم يبق في أهلها للقتـــال حركة ـ ثم رجعت إليها لأرى صدفة درها كيف صارت ، بعد فعل الكفرة بها لما تعدت عليها وجارت ؛ فرأيت ماحير عقلي ، وأذهل لبي ؛ من خراب بعض أماكنها ، وحريق بعض جوانبهـا ؛ وجيف البغـال والخيول ، وتغير الحال الذي يورث الذهول ؛ وأما القتلى فقد دفنوا قبـــل وصولي إليها ، لم أر غير قبورهم بداخلها ؛ قد دفنوا لتغيرهم ، وعدم استطاعة حملهم لتزاحمهم ؛ فجذبتني الغيرة بأسبابها ، ودعتني (١٢١ أ) الحمية لأربابهـا ، إلى تأليف هذا الكتاب بها ؛ ليقف عليه من يأتي من المسلمين بعـــد عصرنا هذا ليعلموا به ما اتفق بها فيما مضى من الزمان ، ولتجتهـد ملوك مصر الآتية بعـــد ملوك عصرنا في حفظها من الفرنج بتكثير القياد بها والتركيز فيهـا لحراستها ، كفعل عمرو بن العاص حين فتحها ؛ فإنه حفظها على طول الزمان ، بقبائل العربان ؛ والله ـ تعالى ـ يجعلها في حفظ وسلامه ، إلى يوم القيامه ؛ بمنه وكرمه ليقـام بها دين الإسلام ، على مر الأيام » .

ويهمنا أن نشير هنا إشارتين ؛ أما الأولى ، فهي حول منشيء الأبيـات المذكورة في نص « النـويري السكندري » ، فهو الشاعـــر المصري ـ الذي ختمت به شعراء الفسطاط ـ « الجمال أبو الحسين الجزار يحيى بن عبد العظيم » ، من شعراء القرن السـابع الهجـــري ؛ انظر ترجمته وطـائفة من شعره في : ابن سعيد الأندلسي (علي بن موسى) ، المغرب في حلى المغـرب ، تحقيق زكي محمـد حسن وشوقي ضيف وسيدة اسمـاعيل كاشف ، ص ٢٩٦ - ٣٤٨ ؛ وفي الأبيات المذكورة هنا ، انظر فيه : ص ٣١٢ - ٣١٣ ؛ وفي المصادر الأخرى التي تعرضت لترجمته ، راجع فيه : ص ٢٩٦ ، ه ١ .

وأما الإشارة الثانية ، فهي تدور حول ما ذكره « النويري السكندري »

هنا عن تاريخ انتهائه من كتابه « الإلمام » ، فهو يحدده بشهر ذى الحجة سنة خمس وسبعين وخمسمائة (مايو - يونية سنة ١٣٧٤ م) . ولكن الشواهد تدل بصورة قاطعة على أنه لم ينته من كتابه إلا فى سنة ٧٧٧ هـ أو فى سنة ٧٧٨ هـ على أقصى تقدير ، إذ يسوق « النويرى السكندرى » نفسه طائفة من النصوص التى تؤيد هذه الشواهد ، وليس هناك تفسير لذلك سوى أن يكون قد انتهى من جمع مادته فى العام الذى يذكره (وهو سنة ٧٧٥ هـ) كما انتهى من تسجيلها فى نفس العام ، ثم شرع يدون ما استجد من أحداث حتى عام ٧٧٧ هـ ؛ إلا إذا ذهبنا إلى أن ناسخ الكتاب هو الذى أضاف الوقائع المذكورة حتى عام ٧٧٧ هـ . ولكننا نستبعد ذلك من واقع ملاحظاتنا أولا على أسلوب « النويرى السكندرى » فى سرده للأحداث ، إذ أن طريقة العرض التى يتبعها فى السرد واحدة ؛ وثانياً من واقع أن ناسخ « نسخة دار الكتب » ينص على أنه ينقل مباشرة عن النسخة التى كتبها المؤلف بخط يده ، ولو كان ثمة تغيير فى خط هذه النسخة - التى ينقل عنها الناسخ - لكان أشار إليها كما هى العادة فى مثل هذه الأحوال ، فهو يقول فى حرد الكتاب (لوحة ٢٩٠ أ) : « وكان الفراغ من كتابته من نسخة بخط مؤلفه رحمه الله . . . الخ » :

يقول « النويرى السكندرى » (نسخة الهند ، لوحة ٢٦٤ أ) : « ولم يزل التازى المذكور (يقصد ابراهيم التازى رئيس دار الصناعة بالاسكندرية) من أبطال الاسكندرية ، إلى أن توفى بها فى أواخر جمادى الأولى سنة سبع وسبعين وسبعمائة . . . الخ » . ويقول أيضاً (نسخة دار الكتب ، ٢٨٧أ) : « وفى سنة خمس وسبعين وسبعمائة ، بدأ الفناء من شوال فيها ، وتتابع إلى ربيع الأول من سنة ست وسبعين وسبعمائة . . . الخ » . كما يقول (نسخة دار الكتب لوحة ٢٨٤ أ) : « . . . ثم إن ملك الأمراء صلاح الدين ابن عرام أقام أشهراً ، وعزل فى المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة ، ثم أعيد

إليها ـ ملك أمراء أيضاً ـ فدخلها في ليلة الجمعة تاسع عشر رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة . . . الخ » .

ويجرنا هذا إلى تحديد تاريخ وفاة « النويرى السكندرى » ، وهو تاريخ مجهول حتى الآن ، لم تتعرض له المصادر البيبلوجرافيــة التى ذكرت كتابه « الإلمام » (راجع فى ذلك : حاجى خليفـــة (مصطفى بن عبد الله الشهير بكاتب جلبى) ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، نشر فلوجل Flugel ، ج ٢ ، ص ١٠٧ ؛ ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين احمد) ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، نشر Krenkow ، ج ٤ ، ص ١٤٢ ؛ السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن) ، الإعـــلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ ، ص ١٢٢ ، مطبعة الترقى ، دمشق ١٣٤٩ هـ) .

ومما يلفت النظر فى هذا الصدد أن بعض المحدثين حددوا تاريخ هـــذه الوفاة ـ دون ذكر لما استأنسوا به من مصادر ـ سنة ١٣٧٣ م المقابلة لسنة ٧٧٤ هـ ـ ٧٧٥ هـ (راجع : سعيد عبد الفتاح عاشور ، قبرس والحـــروب الصليبية ، ص ٨٧ ، القاهرة ١٩٥٧) أو سنة ٧٦٧ هـ (انظر : سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية وآثارها الباقية ، ص ٣٥٤ ، نشر دار الكاتب العربى للطباعة والنشر (بدون تاريخ) ؛ والملاحظ أنها وضعت سنة ١١٦٥م مقابل السنة الهجرية ٧٦٧ ، بينما يقابلها فى الواقع سنة ١٣٦٥ م) . وهذا وهم من « سعاد ماهر » إذ أن « النويرى السكندرى » كان لايزال على قيد الحياة فى سنة ٧٦٧ هـ ، ففيها شهد حملة « بطرس لوزنيان » على الاسكندرية ، وفيها شرع فى تأليف كتابه ، كما مر بنا من قبل . وأما « سعيد عاشور » ، فيحتمـــل أنه استنتج تاريخ وفاة « النويرى السكندرى » من النص الذى أوردناه الآن قبل هذا التعليق تأسيساً على أنه انتهى من كتابه فى سنة ٧٧٥هـ .

ومن المرجح ـ حسبما أوردنا من شواهـــد تؤيدها نصوص « النويرى السكندرى » نفسه ـ أنه توفى فى أواخر عام ٧٧٧ هـ أو أوائل عام ٧٧٨ هـ على

أقصى تقدير . وتستند فى ذلك إلى أنه لوكان حيا بعد أحـــداث شهر رجب سنـة ٧٧٧ هـ (راجـــع ما أشرنا إليـــه الآن عـن نسخـة دار الكتب ، لوحة ٢٨٤ أ) أو بعد استهلال سنة ٧٧٨ هـ ، لكان دون أحداث هذه الفترة قياسا على مافعل بعد أحداث سنة ٧٧٥ هـ ، وهى السنة التى ذكر من قبل أنه انتهى فيها من كتابه ، والذى أثبتنا - من واقع ما أورده هو نفسه من أحداث - أنه واصل التدوين بعدها - المترجان ﴾ .

٢٤- ﴿ تتكون هذه النسخة - فى الواقع - من ٢٧١ ورقـة ، أو لوحة ، بما فى ذلك صفحة العنوان - المترجان ﴾ .

٢٥- من المهم أن نذكر أن الروايات التى ذكرها شهود العيان من المسلمين عن الوقعة قد ساندها مصدر أساسى مسيحى ، هو كتاب La prise d'Alexandrie (نشر de Mas Latrie, Genève, 1877) ، وهو عبـارة عن ديوان شعر كتبه Guillaume de Machaut ، ويضم حوالى ٩٠٠٠ بيت من الشعر . وقـد بدأ Machaut كتابته فى عام ١٣٦٩ - وهـــو فى سن الخامسة والثمانين - وأنهاه فى عام ١٣٧٢ أو ١٣٧٣ . ولم يكن Machaut يعـرف شيئاً عن الشرق ، كما كانت تنقصه التفـاصيل الحقيقية عن الأحداث ، إلا أنه قدم - خلال شعره - دراسات هامة فى الموضوع ، إذكان على اتصال بالمعاصرين ممن شهدوا الوقعة . ويتفق كل من كتاب « الإلمام » ، وكتاب La prise d'Alexandrie - كمعاصرين للأحداث - إلى درجة كبيرة فيما أورداه عن الأمور التى جـرت فى تلك الفترة ؛ ولهذا يمكن لنـا الاعتماد عليهما اعتماداً كبيراً .

٢٦- ﴿ راجع أحدث ما كتب فى الموضوع ويضيف - فى نفس الوقت - كشفاً جـديداً عن أبواب هـــذا السور التى لم تكن تقل فى هذه الفترة عن تسعـة أبواب ، فى : السيد عبد العـزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتهـا فى العصر الإسلامى ، ص ٤٤٤ - ٤٥٣ ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٦٩- المترجـــان ﴾ .

٢٧- ينص ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ٢٨ ، على وجود أربعة من هذه الأبواب .

٢٨- Richard Pococke, Beschreibung des Morgenlades und einiger anderer Lander..., Erlangen 1754, Bd. I. 6 ff.

٢٩- Gratien Le Père, Mémoire sur la ville d'Alexandrie, in Description de l'Egypte, Etat Moderne, t. XVIII, 1 (Paris 1826) , S. 415 - 418 .

٣٠- توجد معظم هذه الخرائط فى :

Atlas Historique de la Ville et des Ports d'Alexandrie, par Gaston Jondet (Mémoires présentés à la Société Sultanieh de Geographie, t. II) , Le Caire 1921 .

٣١- الخطط الجديدة ... ، بولاق ١٣٠٥ هـ ، ج ٧ ، ص ٣٥ .

٣٢- { راجع تحقيق هذه التسمية ونقدها فى : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٤٤٨ - ٤٥٠ : المترجمان } .

٣٣- Atlas Historique, pl. XLVII .

٣٤- { جاء فى « الإلمام » : « (٩٤ أ) ... أن السلطان صالح بن الملك الناصر محمد بن الملك المنصور (جاء فى الأصل : محمد بن الملك الناصر ، وهو خطأ) قلاون سلطان الديار المصرية والشامية وغيرهما ـ منع دواوين النصارى الذميين فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة من الديوانة ، وأن أحداً منهم لا يكتب بديوان إلا إن أسلم ، ومن بقى على نصرانيته يلبس خشن الثياب ، وأن تقصر أكمامهم وأذيالهم وتصغر عمائمهم ، ويركبوا الحمر على شق واحد ، وكذلك سائر النصارى الذميين ، فامتثل ذلك ... (٩٤ ب) ... فصارت الفرنج بالاسكندرية ... يرفعون بضائعهم وأثاثهم إلى المراكب بسرعة وسافروا ، أخبروا النصارى الرومانية بما فعلته المسلمون بأهل النصرانية . فكان ذلك ـ والله أعلم ـ سبباً لهيجان القبرسى وطوافه بأرض الرومانية ... الخ ، ـ المترجمان } .

٣٥- راجـــع :

de Mas Latrie, Histoirê de l'île de Chypre, II, 224, note 2.

٣٦- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (٩٤ ب) . . كما قيـــل - والله أعلم - أن بطرس ، صاحب قبرس لعنه الله ، لما ولى الملك بعـد هلاك أبيه ربوك ، أرسل إلى السلطان الملك الناصر حسن يسأله أن يرسم له بالتوجـــه إلى بلد صور - بساحل الشام - ليجلس على عمود بها كعادة كل من تملك قـــبرس ، (٩٥ أ) لأنه لا يتم له ملكها - بزعمهم - إلا بالجـــلوس على ذلك العمود أو مكان مختص بجلوس الملك فيه ، فيتم له بذلك الملك ويصح له نفاذ حكمه فى رعيته . فاحتقـره السلطان ، ومنعه الدخول الى بلد صـــور ، فكان ذلك - والله أعلم - سبباً لغزوه الاسكندرية » - المترجمان ﴾ .

٣٧- ﴿ الغراب - والجمع أغربة وغـــربان - نوع من المراكب الحربية التى تستعمل فى الغارة والغزو عن طريق البحر ، يصفها النويرى - صاحب « الإلمام » - نفسه ، فيقول : « والمراكب الغزوانية تسمى غـرباناً ، وذلك لرقتها وطولها وسوادها بالأطلية المانعة للماء عنها كالزفت وغـــيره ، فصارت تشبه سوادها الغربان لسوادها وسواء مناقيرهـا » . ويضيف النـــويرى : « ويقال للغربان أيضاً شوانى ، واحدها شينى ؛ ويقال لها أجفان ، واحدهـا جفن ... » ويعود ليؤكد تعريفهـا بمعنى شينى فيقول : « ... ذكر أن جماعة من كراسلة (أى قراصنة) الفرنج الأعزاب ، لم يملـكوا من الشوانى غـــير غـراب ... الخ » ؛ انظر على التوالى : (١٢٣ أ) و (١٢٤ أ) من نسخـة برلين ، (١٥٢ أ) من نسخة الهند - المترجمان ﴾ .

٣٨- ﴿ جاء فى « الإلمام » : (١٠٥ أ) . . . أنه أتى إلى مينة الاسكندرية فى شوال سنة خمس وخمسين [وسبعمائة] غـراب فيـه كراسلة - أى لصوص من الافرنج - تشوش مينتها ، وتخطف ما تقـدر على خطفه . فصـار الغراب المذكور يدور من مينة الاسكندرية الغربية إلى مينتها الشرقية ، فرأى مركباً

أتت من جهة المينة الغربية قدمت إلى الاسكندرية من بر التركية ، فيها تجار المسلمين ومتاجرهم ، فهاجمها الغراب المذكور وحاربها ، فحاربته وقاتلته ، فلم يقدر عليها لعلو سمكها وخروج رماة المسلمين فى القوارب من الساحل لحمايتها منه ، ورموا عليه سهامهم بقسى الجرخ التى معهم ، فسلمت منه ، ودخلت بحر السلسلة أرست بشاطئه بالقرب من الباب الأخضر . فصار الغراب المذكور يجول يميناً وشمالا ، فأرسل إليه الأمـــير سيف الدين بلاط ـ نائب السلطنة بالاسكندرية ، بإشارة تاج الدين موسى الخازن ناظرها ـ قناصلة الفـــرنج المقيمين بها يستخبرونه عن أمره وما سبب جولانه بالمينتين ، فرجعـــوا فى القارب الذى ركبوه إليهم أخبروهما عنهم أنهم يريدون ما يأكلون ويشربون ويرتحلون ، فأرسلا لهم مأكولا وقرب الماء . . . ثم إنهم نظـــروا مركباً قدمت من الشام ، فوثبوا عليها أخذوها بما فيها من البضائع ، ورموا رجالها بمينة بوقـــير ، ومضوا بها . . . ولما بلغ الملك الناصر حسن خبر الغراب المذكور . . (٩٥ ب) . . . أرسل الأمير سيف الدين بكتمر ـ الشهـــير بالوشاق ـ إلى الاسكندرية كاشفا . فحضر ونزل بدار العـــدل المجاورة لبيت المال ـ وهى التى كان بناها أيام ولايته بها ـ فكشف عن الخـــبر . . . ثم إن صـاحب قبرس أتاه خبر الغراب المذكور وما فعله بمينتى الاسكندرية ـ مع ما أطعم وسقى ـ ولم يخرج له أحد حاربه ولا قاتله ، طمع فيها . . . الخ » ـ المترجـــان ﴾ .

٣٩ـ ﴿ جاء فى « الإلمام » ، « (٩٥ ب) . . . السبب الرابـــع ، أن غراباً هجم على الجزيرة المقابلة لرشيد ، أخذ منهـا من المسلمين خمسة وعشرين نفراً ما بين رجال ونساء . . . (٩٦ أ) . . . ثم إن القبرسى لمـــا بلغه خبر الغراب وما فعـــل بجزيرة رشيـد من أخذه الأســـارى منهـا ، فطمع فى الاسكندرية وعمل عليها حتى ظفر بها . . . السبب الخامس ، أن ثلاثة أغربة أتوا إلى مينة بوقـــير وقت الفجر سابع عشرين شعبـان سنة أربع وستـين وسبعمائة ، أخذوا من قصور البساتين ستة وستين نفـــراً من المسلمين ما بين

رجال (٩٦ ب) ونساء وصبيان وإناث ، ومضوا بهم إلى ساحـــل صيدا بالشام ، افتـدتهم منهم المسلمون ، ورجعوا الجميع إلى أوطـانهم ببوقير . . . فلما بلغ القبرسى فعلهم ذلك ببوقير ، ولم يجرد أحد من الأهـالى فى وجوههم سيفاً واحداً ، طمع فى الاسكندرية . السبب السـادس ، أنه أتى إلى جهـــة بوقير ستة غربان جـروا فى البحر ليلا جرياً مفسوداً لعدم جاسوسهم الذى يكون فى البر يقد لهم ناراً فى الليـــل يقصدون جهتها ، فسمعت الصيادون الذين يصيدون السمك فى الليل داخل البحر فى قواربهم حس جـــذف تلك الغربان . فأخذوا حذرهم منهم ، فمضت الغربان بجريهم المفسود الى بلد رشيد . وكان جريهم أولا بقـلاعهم وجـذفهم لبوقـــير ، فلما انفسد بهم الجرى إلى رشيد ، نزل جماعـة من الفرنج من ثلاثة أغـــربة ، ففطنت بهم المسلمون ، فأتوهم بكثرة عددهم وعـددهم ، فهربت الفرنج منهم طالبين غراباً من الثلاثة ، فسبقهم أحمد الجداوى ـ المعروف بالباشق ـ إلى سقالة الغراب رماها (فى) البحر ، فترامت الفرنج (فى) البحر ليهربوا إلى الغراب عنـد تبريز الغراب بمن بقى فيه داخل البحر خوفاً من سهام المسلمين الذين أتوهم يرعون ، غرقوا كلهم لثقل الحـديد الذى عليهم ، منعهم العوم إلى الغـراب المذكور ، فقذفهم البحر بعد أيام الى الساحل ، فكان عدتهم ثمانين رجلا . . . » ـ المترجان ﴾ .

٤٠ ـ ﴿ أورد النويرى ـ فى غير هـذا الموضع ـ تفاصيل مقتلة البنادقة ، انظر : نسخة الهند من « الإلمـام » (١٣٧ ب ـ ١٣٨ أ) ـ المترجان ﴾ .

٤١ ـ ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (٩٦ ب) . . . السبب السابع ، مافعلته عوام المسلمين بالاسكندرية بقتلهم (من) بها (من) الفـرنج البنادقة . فلما هم القبرسى بالعمارة على الاسكندرية ، أعانته البنادقـة بسبب قتـــل المسلمين لأصحابهم بالاسكندرية » ـ المترجان ﴾ .

٤٢ ـ استغرقت هـــذه الاستعدادات من الفرنج حـوالى أربع سنوات ﴿ راجع ما جاء هنا بالحاشية رقم (٥٢) ـ المترجان ﴾ .

٤٣- كان الجيش المملوكي يعسكر في ذلك الوقت بالقاهرة . وكان حاكم الاسكندرية حينئذ يطلق عليه أمير طبلخاناه ، أى أمير أربعين ممن يكونون حرسا خاصا به ، ومن المرجح أنه كان قد اصطحبهم فى رحلته إلى الحج . ومن المرجح أيضاً أنه لم يكن يوجد بالاسكندرية حين الوقعة جندى واحد من المماليك . وعندما وصلت أخبار الوقعة إلى القاهرة ، أنفذ الأتابك يلبغا - بالاتفاق مع السلطان - جيشا بريا مكونا من ألف جندى من المماليك إلى الاسكندرية التى وجدوها قد خلت من الفرنج عند وصولهم ﴿ راجع ما جاء هنا بالحاشية رقم (١٣٠) - المترجمان ﴾ وبعد الوقعة ، عين أمير مقدم ألف حاكما للاسكندرية ؛ والأمير مقدم ألف قد يعنى أيضا أمير مقدم مائة ، ويصبح مقدم ألف فى الحالات الضرورية .

ولما كان كتاب السلوك للمقريزى لم يتم إخراجه بعد فى طبعة كاملة ﴿ صدر منه حتى الآن جزءان فى ستة أقسام ، حققهما الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وبقية الكتاب لايزال مخطوطا - المترجمان ﴾ ، فتجدر الإشارة هنا إلى ماساقه ابن إياس فى حوادث سنة ٧٦٧ هـ - حسبما جاء فى نسخة فاتح ، رقم ٤٢٠٠ ، ورقة ٥٨ أ وما بعدها ؛ وفى طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٢١٤ وما بعدها - إذ يرد هنا إشارة مقتضبة عن الوقعة .

﴿ انظر شرحا وافيا عن المصطلحين : أمير طبلخاناه ، ومقدم ألف ، فى : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج ١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٦ ؛ ج ٣ ، ص ١١٢٧ - ١١٢٨ (على التوالى) ، القاهرة ١٩٦٥ و ١٩٦٦ - المترجمان ﴾ .

٤٤- تطلق هذه التسمية على كل المنطقة الموجودة شمالى سور الاسكندرية ، والتى تضم جزيرة فاروس واللسان الذى تم توصيله بالمدينة ، وهى المنطقة التى كانت تكون اللسان القديم **Heptastadion** .

﴿ راجع مزيدا من الشروح عن هذه المنطقة فى : السيد عبد العزيز سالم ،

المرجع السابق ، ص ٢٠ ـ المترجمان ﴾ .

٤٥ - ﴿ الجرخ ـ والجمع جروخ ـ : نوع من القـــوس الرامى الذى ترمى عنه النشاب والنفط ؛ أنظر :

Dozy, Supplément aux Dictionaires Arabes, t. I, p. 182, 2ème Edition, Leide - Paris 1907 ؛ وهـــو أحد الأنواع الذى يقابله بالانجليزية لفظ Crossbow وبالفرنسية Arbalète. انظر أيضاً : الحسن بن عبد الله ، آثار الأول فى ترتيب الدول ، ص ١٦٠ ، مطبعة بولاق ، ١٢٩٥ هـ ، فهو يذكر الأقوام الذين يمانون قسى الجرخ ، كما يشير إلى دواعى استعمالها . راجع كذلك شروح الدكتور جمال الدين الشيـال على هذا النوع من الأقواس فى : جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفـــرج الـكروب فى أخبـار بنى أيوب ، ج ٢ ، ص ١٥٠ ، هـ ٣ وص ٢٤٤ ، هـ ٤ ، القاهـــرة ١٩٥٧ م . ولمعرفة أسلوب توتير هذا النوع من الأقواس ، أو المعروفـــة بصفة عامة باسم Crossbows ، انظر :

Charles H. Ashdown, Armour and Weapons in the Middle Ages, pp. 85-7, Figs. 71, 73, London 1925

المترجمـــان ﴾ .

٤٦ - ﴿ المزراق ـ والجمع مزاريق ـ هو الرمح القصير ، راجع القاموس . وهـــو ، أخف من العـــنزة ، كما ورد فى : نعمان ثابت ، الجندية فى الدولة العباسية ، ص ١٨٤ ، بغداد ١٩٣٩ ؛ قارن ماجاء هنا بالحاشية رقم (١٠٧) . وقد وصفه على بن عبد الرحمن بن هـــذيل الأندلسى ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق محمد عبد الغنى حسن ، ص ٢٠٢ ، طبعـــة دار المعـارف بالقاهرة ، ١٩٥١ ، وصفه فقـال : « والمزراق كذلك لأنه يرمى به للطافـــة عصاه ، وقد يكون سنانه مربعاً لطيفاً لخرق الدروع وشبه ذلك » . انظـــر أيضاً : Dozy, Supp. aux Dict. Arabes, I, p. 588 . المترجمان ﴾

٤٧- ﴿ الدرقة - والجمع درق - : الترس الدائر ، وتصنع من الجلود خاصة ؛ أنظر : ابن هذيل ، حلية الفرسان ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ و ه ١ ، ص ٢٣٢ - المترجان ﴾ .

٤٨- ﴿ الصفيحة - والجمع صفائح - من الأسماء التي يوصف بها السيف إذا كان عريضا ؛ انظر : ابن هذيل ، ص ١٩١ - المترجمان ﴾ .

٤٩- ﴿ الزرد ، الدرع المزرودة : أي المكونة من حلقات من المعدن يتداخل بعضها في بعض في اتساق وتراصف ، فهي : زرد نضيد ؛ انظر : Dozy, Supp. Dict. Arabes, I, pp. 584-85 - المترجمان ﴾ .

٥٠- ﴿ النفط ، جاء في : Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, pp. 703-4 ، أن « النفط نوع من المواد الدهنية سريعة الاحتراق ، وقد يطلق اللفظ أيضاً على نفس الآلة التي يزرق منها النفط » - المترجمان ﴾ .

٥١- ﴿ لتحديد موقع تربة طغيه ، راجع : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٣٢٣ - المترجمان ﴾ .

٥٢- ﴿ جاء في « الالمام » : « (٩٧ أ) . . . ثم إن القبرسي لما قصد غزو الاسكندرية ، استنجد بملوك النصارى بإشارة الباب (البابا) لهم في ذلك . . . فلما أعانت ملوك النصارى صاحب قبرس بالمال والرجال والغربان - بإشارة الباب لهم في ذلك - عمرت المراكب ، على ماقيل ، برودس ، لأنها دار صناعة الفرنج ؛ فكانت عمارتها - على ماقيل - في أربع سنين ؛ وذلك في مدة طوافه على الملوك . . . وكانت الأخبار تأتي إلى الاسكندرية بأن العمارة عند القبرسي ؛ فاستهم نائب السلطان بها - وهو الأمير زين الدين خالد - فرفع سورها القصير من جهة الباب الأخضر ، وصار يجتهد في العمارة ، ويرسل يطلب من الأمير يلبغا الخاسكي - مقدم الجيوش المنصورة - الإعانة على عمارة السور ، ويعلمه بخبر عمارة القبرسي

للمراكب الحربية . . . (١٩٨) . . . وكان الخبر يأتى الى القبرصى بجزيرة قبرس أن الاسكندرية بها طوائف قاعات يبيتون بساحل مينتها ، لم يعرفوا الحرب ولا باشروه أبداً ، بل يخرجون منها إلى البحر يحرسون ، وكلهم بملبوسهم متزيغون . . . فلما علم القبرصى حالهم طمع فيهم (١٠١) . . . [وأما] نائب السلطان بثغر الاسكندرية ـ وهو الأمير خليل صلاح الدين ابن عرام ـ [ف]كان غائباً عن الثغر المذكور بالحجاز الشريف بسبب الحج . وكان نائباً عنه فى مدة غيبته ـ بإشارة الأتابك يلبغا الخاسكى ـ أمير يسمى جنغرا . فلما دخل جنغرا المذكور الاسكندرية ، رأى طوائفها المتطوعة الحارسة لمينتها تنجر عليه بالجزيرة بقسيهم الجرخ الموترة ، وأعلامهم الحرير المنشورة ، مع ما بأيديهم من المزاريق ، والرماح ، والصفاح ، والزرد النضيد ، ومصفحات الحديد ، والنفط الطيار الصاعد منه لهب النار ، وهم بملبوسهم المختلف الألوان ، كالزهر فى البستان . . . فأقام جنغرا بالاسكندرية من شوال سنة سبع وستين وسبعمائة إلى شهر المحرم ينظر لتلك الطوائف التى لكل طائفة منها ليلة فى الأسبوع تبيت تحرس ساحل المينة . وربما بات (جنغرا) ليالى فى الغرفة التى على باب مسجد تربة الأمير طغية ، ويقدم قدامه فانوسين أكرتين مقابل باب المسجد المذكور ، وتأتى طائفة الزراقين يطلقون النفط ؛ وهو ينظر من طيقان الغرفة المذكورة إلى الشرار الطيار ، واللوالب التى تدور بألوان النار ؛ من الخضرة والصفره ، والبياض والحمره ؛ فيحصل له بذلك الانشراح ، من العشى إلى الصباح ؛ ويبتهج أيضاً بنظره إلى كثرة الخلائق المنتشرة على الساحل من الرماة والعوام وقد نصبت لهم سوق فيه من أصناف المأكول يشترون منه ويأكلون ، ومن الروايا والقرب التى تحمل من البلد إليهم يشربون . فإذا أصبحوا ، انتظمت الطائفة التى باتت تحرس ، ودخل(ت) البلد ، فى همة وجلد ، وكثرة عدد ؛ فتجتمع لدخولهم الرجال والنسوان ، ينظرون لأقوام كزهر بستان ؛ من حسن الملابس ، وبياض تلك الأطالس ؛ فتزغر(د)ن لهم النسوان . . . الخ ، ـ المترجمان ﴾ .

٥٣- سد الباب الأخضر بعد هذه الغارة بالجير والأحجار ، ثم أعيد فتحه في ولاية الأمير سيف الدين إلاكز للاسكندرية ، فركبت عليه أبوابه الثلاثة .

{ جاء في « الإلمام » : « (١٠١ ب) : . . . فبينما هم كذلك . . . إذ دهمهم صاحب قبرص اللعين . . . وذلك في يوم الجمعة الثاني والعشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة ، والنيل منتشر على البلاد ؛ قصد - الملعون - بإتيانه في ذلك الزمن لتعوق النجدة من مصر لبعد الطريق من الجول ، فنال الخبيث قصده في ذلك اليوم والذى بعده ، وتحصن - قبل إتيان النجدة - بمراكبه . . . (١٠٢ أ) . . . وذلك أنه لما كان يوم الأربعاء العشرين من المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة ، ظهر في البحر مراكب مغربة ومشرقة ، زعم أهل الاسكندرية أنهم تجار البنادقة ينتظرونهم يأتون بمتاجرهم على جارى عادتهم في كل سنة ، وكانت تجار المسلمين جلبوا لهم من اليمن أصناف البهار يبيعونها عليهم ويتعوضون عنها من متاجرهم . فلما لم يدخلوا الميناء ، باتت الناس في خوف شديد بسببهم . فلما أصبح يوم الخميس ، أقبلت المراكب الكثيرة طالبة ساحل الجزيرة . . . إلى أن حطت قلاعها ببحر السلسلة وذلك من جهة الباب الأخضر ، المسدود بعد الوقعة بالجير والحجر ، ثم فتح بعد ذلك وركبت عليه أبوابه الأول والثاني والثالث المتجددة ، وذلك في يوم الوقعة سنة سبع وستين وسبعمائة في ولاية الأمير إلاكز بالاسكندرية . . . الخ » - المترجمان } .

٥٤- { القمبرة : أداة لجس الأعماق في البحر - المترجمان } .

٥٥- { جاء في « الإلمام » : « (١٠٢ أ) . . . ولما أرست المراكب الحربية ببحر السلسلة مبرزة عن الساحل ، اهتدت أهل الاسكندرية للقتال ، والحرب والنزال ؛ فتعمرت القلاع التي من جهة البحر بالجزيره ، بالرماة الكثيره ؛ وانتشرت الناس على السور ، وصار برماة الجرخ معمور ؛ فخرج من مراكب الفرنج قارب يجس الميناء بقمبرة ، فرمت المسلمون عليه بالسهام ،

فولى هاربا حتى لصق بالمراكب فلما كان بعد الغروب ، وقدت الفوانيس على السور ، فضاء السور بالنور . . . الخ » ـ المترجمان ﴾ .

٥٦ـ ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٢ ب) . . . فلما كان بعد طلوع الشمس من يوم الجمعة ، انتشر على الساحل بالجزيرة خلق من المسلمين كثيرة . . . وكانت الباعة خرجوا من البلد بطبالهم وقدورهم ودسوتهم ملآنة بالطعام ، يبيعونها على من بالجزيرة من الخاص والعام ، وذلك من ليلة الخميس ، ليكسبوا معاشهم . . . فلما كان قبل (طلوع) الشمس من يوم (١٠٣ أ) الجمعة أقبلت العربان ... فصاروا يتطاردون على خيولهم ... وتلك العربان من كثرتهم خارجين من الباب الاخضر فصاروا فى الجزيرة . » ـ المترجمان ﴾ .

٥٧ـ ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٣ أ) . . . فقال أحد تجار المغاربة وغيره للأمير جنغرا : هذا عدد ثقيل ... والمصلحة دخولهم (أى الناس) المدينة ، يتحصنون بأسوارها الحصينة ، ويقاتلون من خلف الأسوار . . إلى أن تصل من مصر نجدة . . . » ـ المترجمان ﴾ .

٥٨ـ احتل الجنوى Filippo Doria مدينة طرابلس فى عام ١٣٥٤ ؛ راجع : E. J. IV. 883.

٥٩ـ (جاء فى « الإلمام » : « (١٠٣ أ) .. . فقال له (أى لجنغرا) من له رباط بالجزيرة ـ قد انصرف على بنائه ألوف كثيرة ؛ بنيت بين مقابر الأموات ، لمبيت طوائف القاعات ـ : « ما نترك هؤلاء الفرنج الذين كل منهم رجل مقامر ، يطأون بأرجلهم تراب المقابر » قالوا ذلك خوفا على أربطتهم تخربها الفرنج إذا نزلوا الجزيرة ، بجموعهم الكثيرة . فقال عبد الله ـ التاجر المغربى ـ لجنغرا : « دخول المسلمين البلد أصلح لهم » . فقالت أرباب الربط : « أنتم يامغاربة أخربتم بلدكم طرابلس بأخذ الفرنج (لها) ، وتريدون أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تخربوا ربط المسلمين بدخـــول المسلمين البلد ؟ لا كيد (لـكم)م ولا كرامة ، بل نمنعهم النزول من المراكب ، ونذيقهم بالسهام العذاب الواصب » . . .
(١٠٣ ب) . . . فكان جواب جنفرا لعبد الله - التاجـــر المذكور - : « لست أترك أحداً من الفـرنج يصل إلى الساحـل ، ولو قطعت منى الأوداج ونفدت المقاتل . . . الخ » - المترجمان ﴾ .

٦٠- يقدر Guillaume de Machaut عدد هؤلاء المغاربة بما يقـــارب العشرين ألفا . راجع : Vs. 2220 ff.

﴿ من المؤكد أن المقصود هو المغـاربة الذين كانوا ينزلون الاسكندرية - المترجمـــان ﴾ .

٦١- ﴿ الزراقون - والمفـــرد زراق - : هم الذين يرمون النفـط من الزراقة ، وهى أنبوبة خاصة يزرق بها النفط ؛ راجع :
Dozy, Supp. Dict. Arabes, I, pp. 587-88 - المترجمان ﴾ .

٦٢- ﴿ جاء فى « الإلمـام » : « (١٠٣ ب) . . . ثم إن الفـرنج صاروا بمراكبهم ينظرون أحوال الناس ، فلم يروا إلا من هـــو عار من اللباس ، فطمعوا فيهم ، وزحفوا بغراب التقدمة إليهم ، فنزلت إليه طائفة من المغاربة خائضين فى الماء ، ناوشوا من فيه القتال والحرب والنزال ، ومسكوا الغـراب بأيديهم ، وطلبوا من الزراقـين النـار ليحرقـوه ، فلم يأت أحـــد بشرارة (نفط) ، وذلك لقـــلة همتهم وتهاونهم وغفلتهم » ، فاستعجلوهم بالنـار ، فرموا بمدفع فيه نار كنار الحلفا ، فوقع فى المـــاء فانطفا . ثم إن المغـاربة وأصحاب الغراب ضربوا بعضهم بعضا بالسيوف إلى أن قتلت المغاربة فى تلك المحاربة . فحينئذ دخل الغراب الساحل ، وتبعه آخر كان يرمى بالسهام . فلمـا دخلا البر ، تتابعت الغربان داخلة من أماكن متفرقة ، فنزلت الفرنج سريعاً من مراكبها بخيلها ورجلها وقت الضحى نهار يوم الجمعـــة إلى البر ، فرمعه

الخيالة (على) المسلمين بالسهام ، تقدمهم أصحاب الدرق والسيوف مشاة على الأقدام . . . الخ » ـ المترجان ﴾ .

٦٣ـ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٣ ب) . . . وكانت الفرنج مسربلة بالزرد النضيد ، متجلببة بصفائح الحديد ؛ على رؤسهم الخوذ اللامعه ، وبأيديهم السيوف القاطعه ؛ قد تنكبوا القسى الموتوره ، ورفعوا أعلام الصلبان المنشوره ؛ وصاروا يرمون على المسلمين فارتشقت سهامهم فى أهل الإيمان ، وفى خيول العربان ، فهجمت بهم تلك الخيول فى كل جهة ومكان ؛ فانهزموا إلى ناحية السور ، فصار جيش المسلمين بهزيمة العربان مكسور ؛ ولا عادوا قابلوا الفرنج (١٠٤ أ) الكلاب ، بل دخلوا غائرين من الأبواب ؛ وكانت الفرنج لابسين الحديد من الفرق إلى القدم ، والمسلمون كلحم على وضم ؛ فكيف يقاتل اللحم الحديد ، وكيف يبرز العارى لمن كسى الزرد النضيد . . . ثم إن أهل الاسكندرية لما رأوا ما لم يعهدوه . . . رجفت منهم القلوب . . . فتزاحموا فى الأبواب بعضهم على بعض . . . الخ » ـ المترجان ﴾ .

٦٤ـ وقف قاعة القرافة هذه الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن سلام . وهى تقع ـ فيما يبدو ـ قريباً من الجامع الغربى الذى قام ابن سلام بتوفير الحصر له . وهذه القاعة لا تبعد كثيراً عن باب الخوخة الذى يعرف أيضاً بباب القرافة ﴿ راجع الحاشية رقم (٣٢) ـ المترجان ﴾ . وقد استخدمت هذه القاعة كمكان لاجتماع المتطوعة من الرماة ، كما كان يحفظ بها أسلحتهم وعددهم وأعلامهم وبنودهم وسائر معداتهم الحربية . وكانت العلاقة بين هؤلاء المتطوعة تتسم بسمة الأخوة ذات الصبغة شبه الدينية . وكان رماة المتطوعة يتجمعون فى هذه القاعة حيث يرتدون ملابسهم ، ويتسلحون أنفسهم بالأسلحة اللازمة ، ويخرجون منها ليلا فى جماعات معينة ويتوجهون إلى الجزيرة للقيام بنوبات الحراسة . وقبل وقوع الغارة بعدة سنة ، قام ابن سلام ببناء رباط لجماعة الرماة المتطوعة هذه حيث كانوا ينامون فيه ويقيمون صلواتهم وحلقات الذكر . وذكر أنه صرف على هذا الرباط ثمانمائة

دينار ، وأنه أعاد بناءه كما كان عليه الحال من قبل فى عام ٧٧١/١٣٦٩ بعـــد أن خربته عساكر الفرنج ، فيما عدا سقف الايوان ، فقد أتى هـذا السقف بالحجارة بدلا من الخشب حتى لا يصير للنار فيه عمل إن حدث أمر مثل ذلك .

٦٥- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٤ أ) . . . وذلك أن جماعة من رماة قاعة القرافة (١٠٤ب) المتطوعة لما حوصروا فى الرباط - الذى عمره لهم الشيخ الصالح أبو عبد الله محمـــد بن سلام خارج باب البحـــر بالجزيرة بسبب مبيتهم فيه وصلواتهم وذكرهم ليلة خروج طائفتهم ترابط به ، وكان بناؤه قبل الوقعة بما يزيد على سنة ؛ قيل إنه انصرف عـــلى عمارته ثمانمائة دينار - فلما تكاثرت الفرنج حول الرباط ، صارت رماة المسلمين فى أعلاه يرمون على الفرنج بسهامهم ، فقتلوا من الفرنج جماعة . فلما نفدت سهامهم ، عمدوا إلى شرفات الرباط صاروا يهدمونها ويرمون الفرنج بأحجارها إلى أن نفدت حجارة الشراريف منهم ، فانقطع رميهم . فكسرت الفرنج شبابيك الرباط المذكور ، وصعدوا إليهم . فلما صارت الفـــرنج معهم ، صاحوا بأجمعهم : « يا محمد » ، وصمتوا ، فلم يسمع لهم بعد ذلك صوت . أخـــبر عنهم بذلك عبد الله بن الفقيه أبى بكر - قيم مسجد القشميرى - كان مختفيا بصهريج الرباط المذكور فذبحهم الفرنج عن آخرهم . . . قال المؤلف . . . : حدثنى الشيخ الصالح أحمد بن النشاقى - شيخ رماة قاعة القرافة بالاسكندرية قال : « حدثنى محمد الخياط - بعد قدومه من مدينة قبرس مع من حضر من أسارى الاسكندرية الراجعين إليها منها - قال : كنت مع رماة المسلمين على سطح رباط ابن سلام حين صعدت الفرنج إلينا ، فصاروا يذبحـــون الرماة وأنا أضطرب من الخوف ، فتركونى حيا لصغر سنى . وأما حسين البياع ، فإنه لما قصدوا ذبحه (١٠٥ أ) ضحك لهم ، فضحكت الفرنج لضحكه وقالوا: اتركوه ، لأنه ضحك موضع الخوف . قال : فأسرنا الاثنـــين . . . الخ » - المـــترجمان ﴾ .

٦٦- أشار خليل الظاهرى إلى دار السلطان هـذه ، فذكر أن صلاح الدين بناها ، ثم جددها الناصر فرج بن برقوق (١٣٩٨ - ١٤٠٥) فأزال ما أصابها من تلف من جراء الوقعة . وكانت دار السلطان تعد فى زمن خليل الظاهرى إحـدى التحف الفنية العالمية ، وهو يحدد موقعها فيذكر أنها كانت تطل على البحر مباشرة . ومن المرجح أنها كانت تقع على السور الغربى الذى كان يصل - وقتئذ - إلى الميناء الغربى . وغالباً ما كانت الدار لاتفتح فتظل مغلقة . وقد صرح السلطان الأشرف سيف الدين برسباى لصهره خليـل الظاهرى بسكنى هـذه الدار عندما أصبح الأخير حاكما للاسكندرية فى عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ - ١٤٣٧ م .

(ولمعرفـة المزيد من التفصيلات عن هـذه الدار ، راجع : السيد عبد العزيز سالم ، المرجع السابق ، ص ٤٨٥ - المترجان) .

٦٧- (جاء فى « الإلمام » : « (١٠٥ ب) ... وذلك أن الأمير جنغرا ... لما رأى الناس فروا من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وشماله بالمدع سهام الفرنج ، والتذع هو أيضاً بها ، وسال دمه من نصالها ، ندم على مخالفته لقول القائل له : « ادخل بالناس (المدينة) ليتحصنوا بأسوارها الحصينة » ... ثم إن جنغرا قصد ناحية الطرق المحاذى لدار السلطان - غربى الاسكندرية من ظاهر سورها - خائضا بفرسه فى الماء ومن تبعه من المسلمين ، فدخـل الاسكندرية من باب الخوخة ، فأتى بيت المال ، أخذ ما كان فيه من الذهب والفضة ، أخرجهما من باب البر ... الخ » - المترجان) .

٦٨- (جاء فى « الإلمام » : « (١٠٥ ب) ... وأمر — أى الأمير جنغرا - بتجار الفرنج وقناصلتهم ، وكانوا نحو خمسين بالاسكندرية مقيمين ، أخرجهم من باب البر ، ووجههم إلى ناحية دمنهور بعـد أن امتنعوا عن الخروج مع الجبلية المرسمين عليهم . فعند ذلك ضرب أحمد الجبلية عنق افرنجى منهم بسيفه . فحين رأوا ذلك ، خافوا أن تضرب أعناقهم ، فأذعنوا بالخروج سرعة ، فخرجت الجبلية بهم مسلسلين إلى جهـة دمنهور . وكان

خروجهم بهم حين انضمام العدو إلى القرب من السور ، فرمتهم للسلمون من أعلى السور بالسهام ، فلم يقدروا على الوصول إليه . . . » — المترجان) .

٦٨ أ — (مابين الحاصرتين لم يرد فى الترجمة عن نسخة برلين ، فالعبارة ساقطة فى تلك النسخة ، وما هنا إضافة عن نسخة الهند رأينا إثباتها زيادة فى توضيح وصف هذه السلالم — المترجان) .

٦٩ — (التوسيط ، هو ضرب الرجل فى وسطه بالسيف فينشطر قطعتين — المترجـــان) .

٧٠ — (جاء فى « الإلمام » : ما (١٠٥ ب) « . . ثم إن الفرنج عمدوا إلى بقية خشب ملأوها حريقاً وقصدوا بها حرق باب البحـــر بكركرتها بأسنة الرماح . فتتابعت عليهم السهام من أعلى السور ، فقتل من الفرنج جماعـــة ، فحاروا فى أمرهم لماذا يفعلونه ؟ فتركوا البقية تقد نارا بعيـــداً عن الباب ، ورجعوا إلى ناحية المينة الشرقية . ونظروا فلم يجـــدوا على السور من تلك الجهة أحدا ، ولا ثم خندقاً يمنع من الصعود إلى السور ، فدرجوا إلى جهة باب الديوان أحرقوه ، ودخلوا (منه) مع مانصبوا هناك من السلالم الخشب المفصلة صعدوا عليها السور . فلما رأتهم المسلمون الذين على السور من البعد قد صعدوا وبينهم وبين الفرنج ثلمة عالية غير نافذة إليهم ، شردوا طالبين النجاة منهم لكثرتهم ، ولتحققهم بأن الفرنج ملكت البلد . فقتل من المسلمين من أدركته الفرنج ، وسلم منهم من خرج من أبواب البر . فلو كان (١٠٦ أ) السور الذى يلى البحر جميعه معمرا بالرجال من جهـــة الديوان والصناعة ، سلمت منهم الاسكندرية . وإنما قال شمس الدين بن غرابة — كاتب الديوان — وشمس الدين بن أبى عذيبة — الناظر — : « اغلقـوا باب الديوان الذى يلى البلد لئلا تنقل التجار بضائعها منه إلى البلد فتضيع الحقوق عليها » ، فقفل الباب . فلذلك امتنعت الرماة من تلك الجهة من السور ، فبذلك رأى العـــدو جهة خالية دخل البلد منها . وقيل أيضاً إن ابن غراب — المذكور — كان متمالئاً مع

صاحب قبرس عليها ، وأن صاحب قبرس أقاما قبل الوقعة في زى تاجر أواه ابن غراب – المذكور – (عنده) مدة . فصار القبرسي يتمشى بالبلد من جملة الفرنج – التي (كانوا) بها تجارا – وهو يكيفها ، وينظر أحوال الناس بها . فلما علم ذلك بعد الوقعة ، وسط الأمير صلاح الدين بن عرام – بعد قدومه من الحجاز – شمس الدين بن غراب – المذكور – وعلقه قطعتين على باب رشيد . فلو فتح باب الديوان الذى يلى البلد ، قاتل المسلمون الفرنج من أعلى سوره ، ووجدوا ما يقوتهم بالأكل من نقل الشام ، وكانت أصحاب البضائع تحرسها ويطعمون منها المجاهدين . فلما لم يكن الأمير جنغرا رأى صائب ، وقفل ابن غراب والناظر لباب الديوان ، أخذت الفرنج البلد منه . ونفدت المقادير من كل كبير ، من أهل الثغر وصغير ؛ فمنهم من قتل ، ومنهم من أسر ، ومنهم من سلم ، ومنهم من كسر ، ومنهم من هرب بعد أن ألقى سلاحه . . . الخ » – المترجان ﴾ .

٧١- ﴿ جاء في « الإلمام » : « (١٠٦ ب) . . . وكان فرار أهل الاسكندرية من الفرنج من باب السدرة ، وباب الزهرى ، وباب رشيد ، بعد زحام شديد ؛ فمنهم من أدركته الفرنج بباب السدرة فقتله ، ومنهم من أسره ؛ ومنهم من نزل من السور في الحبال والعمائم ، فعطب العاطب وسلم السالم ؛ وصعدت الفرنج على أعلى باب السدرة ، نصبت عليه أعلام الصلبان ، وصار كل واحد من المسلمين برؤيته الفرنج كالهائم الولهان . . . الخ – المترجمان ﴾ .

٧٢- ﴿ القيسارية – والجمع قياسر – : هي السوق التجارية العامة . انظر شرحا وافيا لهذا اللفظ في :

Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 432 – المترجمان ﴾ .

٧٣- ﴿ الخان – والجمع خانات – : يطلق على الفندق الذى تكدس فيه البضائع والسلع للبيع بالجملة ، وينزل فيه التجار عادة للمبيت به – المترجمان ﴾ .

٧٤- ﴿ جاء فى « الإلمام » : « (١٠٧ أ) ثم إنه لما حصل الغلاء بين أهل الاسكندريه ، الذين فروا من ملة النصرانيه ؛ منهم من باع ما عليه من قوطه وفاضل قميص ، ومنهم من باع ما يتدفأ به من جهة فرو (و) مصيص ؛ وذلك لخروجهم من بلدهم سرعه ، وليس مع بعضهم درهم ولا قطعه ؛ بل تركوا ديارهم مغلقة الأبواب ، كسرتها ورتعت فيها الفرنج الكلاب ؛ فنهبتها (مع) الحوانيت والفنادق ، وحملت ما فيها على الجمال والحمير والأيانق ؛ ثم قتلوا من اختفى عند مصادفتهم له من كبير وصغير ، وعرقبوا المواشى فيها هالك وكسير ؛ ثم إنهم أحرقوا القياسر والخانات ، وأفسدوا (فى) النسوان والبنات ؛ وكسر كل شلج مارد ، قناديل الجوامع والمساجد ؛ وعلقوا على السور أعلام الصلبان ، وأسروا الرجال والنساء والإ(ما)ء والولدان ؛ وقتلوا كل شيخ عاجز ، حتى المجانين والبلهاء والعجائز . . . (١٠٧ ب) ثم إن الفرنج فعلوا بالاسكندرية - ما تقدم ذكره - من نهب وكسر ، وقتل وإحراق وأسر ، من عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ثانية . . . الخ - المترجمان ﴾ .

٧٥- ﴿ قارن هذا التاريخ (ثانى صفر) بما جاء عن المدة التى أقامها الفرنج بالاسكندرية كما ورد فى « الإلمام » - وهو ما أثبتناه بالحاشية رقم (١٣٠) - وهو ما ساقه أيضا Kahle فى ترجمته للنص العربى ، فى صفحة (٥١) من هذه الترجمة . والذى يبدو أن Kahle قد وهم فى تحديد التاريخ بثانى صفر ، إذ لم يرد ذكر هذا الشهر فى النص العربى الذى ترجمه Kahle هنا ، ولكن المذكور هو : « . . . من عصر يوم الجمعة إلى آخر يوم السبت ثانيه » (راجع الحاشية السابقة) ، ويعنى هذا أن الفرنج قاموا بعمليات النهب والسلب ابتداءاً من يوم الجمعة ٢٢ المحرم إلى ثانى يوم يليه وهو السبت ٢٣ المحرم ، وهذا واضح فى النص العربى الذى أشرنا اليه هنا عن الحاشية السابقة كما ذكرنا . وعلى كل حال ، يوافق يوم السبت الذى أشار إليه Kahle فى مقاله غرة صفر وليس ثانيه ؛ انظر فى ذلك :

محمد مختار ، كتاب التوفيقات الإلهامية فى مقارنة التواريخ الهجرية بالسنين الأفرنكية والقبطية ، الطبعة الأولى ، بولاق مصر ، ١٣١١ هـ - المترجمان ﴾ .

٧٦- كانت المعاريج منطقة تلاصق أحد التلال بالاسكندرية ، وهو ما يسمى الآن بكوم الدكة .

﴿ رجعنا للتأكد من هذا التحديد إلى أستاذنا الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، فقال : « هكذا فسر Kahle المعاريج ، ولم يرد فى النصوص العربية ما يؤكد ماذهب إليه Kahle ؛ والمتواتر أن كوم الدكة هى نفس المنطقة المعروفة فى المصادر العربية باسم كوم الديماس ... أ هـ » . هذا ، وقد بدىء فى إزالة هذا الكوم فى سنة ١٩٥٦ حتى سنة ١٩٥٨ - وقد صدرت مقالة Kahle فى عام ١٩٤٠ - بينما لا يزال مكانه يحتفظ بنفس الاسم - المترجمان ﴾ .

٧٧- ﴿ كذا فى نسخة برلين ، وفى نسخة الهند : (وفندق الطبيعة) - المترجمان ﴾ .

٧٨- كان نجم الدين الدماميني من فئة تجار الكارم بالاسكندرية ؛ راجع :
Quatremère, in Note. et Extr., XIII, 1838, S. 214, Note 1
وقد أفاض Quatremère الكلام فى المرجع السابق وكذلك فى Note. et Extr., XII, 1831, S. 639 عن طائفة تجار الكارم ودورهم بين التجار ومن انحدار أصولهم من افريقية ، وسيطرتهم على تجارة التوابل . راجع :

Heyd, Histoire du Commerce du Levant au Moyen – Age, II, 59, Note 6.

٧٩- كان جامع الجيوشى فى الأصل كنيسة تعرف باسم كنيسة أثناسيوس Athanasius التى شيدت فى عام ٣٧٠ م ثم تحولت إلى مسجد . وقد أعاد أمير الجيوش بدر الجمالى تعمير هذا المسجد فى عام ١٠٨٥ - ١٠٨٦ ؛ راجع :

van Berchem, Corpus, I, 702 ، وأطلق عليه اسم جامع الجيوشى نسبة إلى أمير الجيوش ، وهو الجامع الذى يعرف اليوم باسم جامع المطارين . وتوجد صور مرسومة لهذا الجامع فى :

Description de l'Égypte, Antiquités, V, pl. 38 f.

٨٠- ﴿ الدرابزى : هو السياج الذى يحف بالدرج ، وغالباً ما يكون من الخشب ، كشأن السياج الى جانبى المنبر . وقد ورد هـذا اللفظ فى موضع آخر من المخطوطة برسم « درابزين » ، وهو ما يتداوله العامة فى أيامنا هذه - المترجمان ﴾ .

٨١- من الصعب علينا أن نحدد الأماكن التى ذكرها المؤلف هنا بالنسبة لكل من جامع الجيوشى وباب رشيد . إلا أننا إذا ذهبنا إلى أن المؤلف قد قام - إلى حد ما - بوصف أماكن المدينة المخربة حسب توقيت وقوع التخريب بها ، نراها تتركز فى المنطقة الواقعة من المطارين حتى باب رشيد . فمن المحتمل إذن أن الحجة كانت تقع قريباً من باب رشيد ، وعلى وجه التحديد جنوبى الشارع الذى يؤدى إلى هذا الباب . ولقد حدد هذا الموضع مهندسو الحملة الفرنسية بشىء من الدقة فى تخطيطهم للمدينة . ويشهد بذلك ماقرره مؤلفنا (الورقة ١٠٦ ب) من أن سكان الحجة قد دافعوا عن أنفسهم بقذف الفرنج بالأحجار من منازلهم ، فخشى الفرنج لذلك أن تطأ أقدامهم هذه المنطقة . وعلى ذلك ، ظل هذا الجزء من المدينة دون أن تناله يد التخريب تقريبا .

٨٢- ﴿ المقصود بالكيتلانيين : التجار من أهل قطلونية بأسبانيا - المترجمان ﴾ .

٨٣- ﴿ فى نسخة المتحف : (الشباعين البياعين) ، وما بالمتن - عن نسخة برلين - أصح - المترجمان ﴾ .

٨٤- هؤلاء البياعون هم باعة منتجات المناطق الاستوائيـة ، وكان مما يبيعونه الزيت والعسل والسمن فى أوعية مختلفة .

٨٥- المقصود هنا هو الملك الناصر قلاون الذى حكم على فترات متقطعة فيما بين ٦٩٣/١٢٩٣ و ٧٤١/١٣٤٠ ؛ راجع :

Asin Palaciòs, El Faro dè Alejandria (Al Andalus, I, 1933, S. 281) .

فقد أشار (وسجل ذلك أيضاً ابن بطوطة فى رحلته عند زيارته لمصر فى عامى ١٣٢٦ و ١٣٤٩) إلى أن الناصر - بعد سقوط المنارة القديمة - بدأ العمل فى بناء منارة جديدة على طراز القديمة تقع فى مواجهتها ، إلا أنه توفى قبل أن يكمل هذا البناء . وتوجد هنا إشارة إلى تكملة ابن عرام حاكم الاسكندرية لبناء هذه المنارة الجديدة قبل الوقعة بقليل ، أى فى عام ١٣٦٤ أو ١٣٦٥ . ويقال إن باب هذه المنارة قد شوهد فى جزيرة قبرص .

{ كذا ذكر الاسم فى نسخة برلين ، وقد أخطأ فيه أيضا Kahle فى الحاشية التى نعلق عليها الآن ، وربما سقط لفظ (بن) بعد الناصر ليصح الاسم وبالتالى التعليق الذى أورده Kahle . وقد جاء الاسم صحيحاً فى هذا الموضع من نسخة الهند ، فهو : (الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاون) ؛ راجع مزيداً من المعلومات عن اهتمام الناصر محمد بهذه العمارة فى : جمال الدين الشيال ، تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الإسلامى ، ص ١٣١ - ١٣٢ ، الاسكندرية ١٩٦٧ - المترجمان } .

٨٦- { جاء مكان هذه العبارة فى نسخة الهند : (من الفرنج قبل نزولهم) - المترجمان } .

٨٧- { فى نسخة الهند : (مصلى الأعياد وعمود) - المترجمان } .

٨٨- { ورد هذا اللفظ فى كل من نسخة برلين ونسخة الهند : (اللذان) المترجمان } .

٨٩- Silber - Umrahmungen . والترجمة الموجودة هنا مأخوذة من :

Ch. Kuentez الذى ذكر أن كلمة (يقا) كلمة تركية تعنى (Col) ، والمقصود بها هنا : « حلية دائرية ، عبارة عن شريط زخرفى يدور حول التحفة (المراد زخرفتها) » .

٩٠- ﴿ هذا اللفظ ساقط فى نسخة الهند ـ المترجان ﴾ .

٩١- ﴿ فى نسخة الهند : (بها) ـ المترجان ﴾ .

٩٢- ﴿ المرابد ، هم النهابة من الجند Maraudeurs ؛ راجع :
Dozy, Supp. Dict. Arabès, II p. 108 ـ المترجان ﴾ .

٩٣- ﴿ فى نسخة الهند : (مأربهم) ـ المترجان ﴾ .

٩٤- ﴿ هذا اللفظ ساقط فى نسخة الهند ـ المترجان ﴾ .

٩٥- ﴿ فى نسخة الهند : (فأحرقها) ـ المترجان ﴾ .

٩٦- أورد ابن إياس ، مخطوطة فاتح ، رقم ٤٢٠٠ ، ورقة ٥٨ ب ، قائمة بأجناس هذه المراكب ، فذكر منها أربعة وعشرين غرابا للبنادقة ، وغرابين للجنوية ، وعشرة أغربة للروادسة ، وخمسة للفرنسوية ، وما تبقى فللقبارصة .

﴿ وقد فات Kahle تلك القائمة التى أوردها صاحب « الإلمام » نفسه فى (١٢٣ أ) من نسخة برلين التى اعتمد عليها ، والتى يقول فيها النويرى : « أتاها ـ يعنى الاسكندرية ـ مراكب حربية مجمعة من أجناس مختلفة . قيل إن البنادقة أتت معه إليها فى أربعة عشر غرابا ، والجنوية فى غرابين ، والروادسة فى عشر(ة) غربان ، والفرنسيسيين فى خمس(ة) غربان ، والباقى من جزيرة قبرس » . والمشاهد أن ابن إياس يأخذ عن صاحب « الإلمام » ـ أو عن آخر نقل عنه ـ ، ونص ابن إياس يتفق وما ورد فى « الإلمام » إلا فيما يختص بعدد غربان البنادقة ـ المترجان ﴾ .

٩٧- { كذا فى نسخة برلين ، وفى نسخة الهند : (علامته) ، وهذا أوقع - المترجان } .

٩٨- { فى نسخة الهند : (منها) - المترجان } .

٩٩- { مابين الحاصرتين مطموس فيما بين أيدينا من نسخة برلين المصورة ، وما هنا عن نسخة الهند - المترجان } .

١٠٠- من المعتقد أن المؤلف يشير هنا إلى سيطرة الفرنج على مدينة طرابلس الغرب طيلة اثنتى عشرة سنة تمتد من سنة ١١٤٦ إلى ١١٥٨ .

١٠١- استولى الصليبيون على مدينة أنطاكية فى عام ١٠٩٨ ، وظلت ١٧٠ عاما فى أيدى المسيحيين .

١٠٢- ذكر خليل الظاهرى (زبدة كشف الممالك ، نشر Ravaisse ، ص ٤٠) شيئا عن قصر السلاح فى قوله : « وبالثغر قصر السلاح مملوء بالعدد المتنوعة ، حتى إن لو جاء إليه أهل الديار المصرية لكفاهم فى اللبوس » .

١٠٣- { ورد هذا اللفظ فى نسخة برلين : (الزربية) ، وكذا نقله Kahle فى مقاله . والتصحيح هنا عن نسخة الهند - المترجان } .

١٠٤- { هذا اللفظ مطموس فى نسخة برلين ، وما هنا عن نسخة الهند - المترجان } .

١٠٥- { كذا وردت العبارة فى نسخة برلين ، بينما جاء فى نسخة الهند وقد طمس بعضه بفعل الترميم ما يلى : (السلاح . . . . سر السلاح المذكور على قامات الرماة) - المترجان } .

١٠٦- { ورد هذا اللفظ فى كل من نسخة برلين ونسخة الهند : (ستين) - المترجان } .

١٠٧ - { رسم هذا اللفظ فى نسخة برلين : (القنابر) ، وهـو تحريف لما أثبتناه فى المتن كما أنه ورد فى نسخة الهند (العنابر) بالباء الموحدة . وقد نقله Kahle بنفس التحريف الوارد فى نسخة برلين ، وترجمه إلى الألمانية بمعنى Keulen أى الهراوات ، وأتبع هذه الترجمة بعلامة (؟) دلالة على شك وعدم تأكده من معناه ، وإن كانت الترجمة قريبا من المراد . والعنايز (ومفردها : عنزة ـ بفتحة على الحروف الثلاثة الأولى ـ) اسم من أسماء الرماح ؛ يقول ابن هذيل ، حلية الفرسان ، ص ٢٠٢ ، فى شرحها : « العنزة ، وهى عصا فوق الهراوة فيها « زج » ، وهى من السلاح لإمكان الدفع بها ، والزج فيها يشبه السنان وإن لم يكنه » . انظر : نعمان ثابت ، الجندية فى الدولة العباسية ، ص ١٨٤ ، ففيه : « العنزة ، قدر نصف رمح » ، ويضعها نعمان ثابت فى قائمة أنواع الرماح ؛ انظر أيضا : عباس محمود العقاد ، عبقرية عمر ، ص ١٣٠ ، ه ١ ، الطبعة الخامسة ، القاهرة ١٩٤٨ . وقد أخطأ Dozy فى تفسير العنزة على أنها السهم la flèche ؛ راجع :
Supp. Dict. Arabes, II, p. 181 ـ المترجم } .

١٠٨ - { راجع ماقات هنا بالحاشية رقم (٤٩) ـ المترجم } .

١٠٩ - { قرقل ـ والجمع : قرقلات ـ ضرب من الدروع ؛ انظر :
Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 336 ـ المترجم } .

١١٠-١١٣ - { هذه المصطلحات تدل على المقصود منها ، فهى أدوات لوقاية أجزاء الجسم المذكورة ، وهى تصنع عادة من المواد الجلدية أو المعدنية ـ المترجم } .

١١٤ - { جاء فى Dozy, Supp. Dict. Arabes , II, p. 418 : « قوس اللولب ، هو القوس الذى يوتر (يشد) بآلة معينة » . قارن ماجاء هنا بما ورد بالحاشية رقم (٤٥) ـ المترجم } .

١١٥- ﴿ راجع ما فات هنا بالحاشية رقم (٤٥) ـ المترجمان ﴾ .

١١٦- ﴿ الركاب ـ والجمع : ركب ، وركابات ، وأركب ـــ : ما يعلق فى السرج فيجعل الراكب فيه رجله ـ المترجمان ﴾ .

١١٧- ﴿ يقصد بهـــا نوع من الحجارة الصلبة التى تستخدم قذائف للمنجنيقات ـــ المترجمان ﴾ .

١١٨- ﴿ من مكائد الحرب وذخائرها وصنوفها ، راجع : نسخة الهند من « الإلمام » ـ مما لم الحق به نسخة برلين ـــ ، ٢٠٦ أ ـــ ٢٠٧ ب ، ٢٠٨ أ ـــ ٢٠٩ أ ، ٢٠٩ ب ـــ ٢١٠ ب : المترجمان ﴾ .

١١٩- ﴿ جاء هذا اللفظ فى نسخـــة برلين ، (كثيرا) ، والتصحيح من نسخة الهند ـــ المترجمان ﴾ .

١٢٠- ﴿ فى نسخـــة برلين : (كمينـــا) ، والتصحيح من نسخـــة الهند ـ المترجمان ﴾ .

١٢١- من المرجح أن المقصود بذلك ما كان يعرف باسم **Fort Triangulaire** الذى كان قائمـا فى جنوبى غربى السور العربى ، والذى وجد مرسوما بشكل واضح فى تخطيط علماء الحملة الفرنسية لمدينة الاسكندرية . وقد اهتم به الفرنسيون وجعلوه فى حالة صالحة للقيام بمهمة الدفاع ، . إلا أنه دمر تدميراً تاما بالمتفجـــرات فى عام ١٨٠١ ؛ راجع : **Gretien le Père, Mémoire sur la ville d'Alexandrie, in Description de l'Egypte, XVIII, 1 (Paris 1826), S. 416.**

١٢٢- ﴿ هـــو تقى الدين أبو الحسن على بن عبد الجبار الشاذلى . ولد فى عام ٥٩٣/١١٩٧ فى إقليم غمارة بالقرب من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى ، وعاش معظم سنى حيـاته فى تونس ومصر ، وأنشأ مدرسة صوفية كبيرة ، مازال أتباعها وتلاميذها ينتشرون فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ويكونون

فـــرقا صوفية كثيرة تشعبت كلها عن الفرقـة الأصلية التى أنشأها ونسبت إليه ، وهى الفرقة الشاذلية . وتوفى أبو الحسن الشاذلى فى عام ٦٥٦/١٢٥٨ فى حميثرا ، وهى موضع فى الصحراء المؤدية إلى عيذاب عـلى البحر الأحمر ، ودفن حيث مات ، انظر ترجمة وافية له فى : جمال الدين الشيال ، أعـــلام مدينـــة الاسكندرية فى العصر الاســـلامى ؛ ص ١٦٢ - ١٩٠ ، نشر دار المعارف بمصر ، ١٩٦٥ - المترجمان ﴾ .

١٢٣- ﴿ راجع ما فات هنا بالحاشية رقم (١٠٣) - المترجمان) .

١٢٤- ﴿ ورد هذا اللفظ فى نسخة برلين : (أعلا) - المترجمان ﴾ .

١٢٥- الأصح أن نسميهـا أبواب البحر . قارن ذلك بملاحظة خليل الظـاهرى (ص ٣٩) :« وللثغر عـدة أبواب محكمة حتى إن عـلى كل الباب منها ثلاثة أبواب من حـــديد » .

١٢٦- ﴿ المنجنيق - بفتح الميم وكسرها - أو المنجنوق ، أو المنجميق ، والجمع : مجانيق ، ومناجيق ، ومنجنيقـات ، لفظ أعجمى معـــرب ؛ انظر : أبو المنصور الجواليقى ، المعرب من الكلام الأعجمى على حـــروف المعجم ، تحقيق محمـــد شاكر ، ص ٣٠٥ - ٣٠٧ ، القاهرة ١٣٦١ هـ . وجاء وصف المنجنيق فى : القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، ج٢ ، ص ١٤٤ ، القاهـــرة ١٩٢٨ ، كما يلى : « آلة من خشب له دفتـان قائمتان بينهمـا سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، تجعل كفة المنجنيق التى يجعل فيهـا الحجر يجذب حتى ترفع أسافله الأعلى أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذى فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئـاً إلا أهلكه » . وانظـــر أيضا شروح الدكتور جمال الدين الشيال على هذه الآلة الحربية فى : جمال الدين بن واصل ، مفرج الكروب ، ج ١ ، ص١٨٠ ، هـ ٢ ، القاهرة ١٩٥٣ ؛ وراجع : الحسن بن عبد الله ، آثار الأول ، ص ١٩١ - ١٩٣ : المترجمان ﴾ .

١٢٧ - ﴿ الاستعمالات هي الملابس والثياب - المترجمان ﴾ .

١٢٨ - ﴿ الكدس - والجمع أكداس - هو الكوم ، انظر : Dozy, Supp. Dict. Arabes, II, p. 449 . وقد رجعنا في تحديد هذا المكان وفي التعريف به إلى أستاذنا الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، فقال : « ثبت من كتاب « الإلمام » أن الكدس موضع يقع في جهة الباب الأخضر (انظر المتن هنا) . ولما كان الكدس يعني الكوم ، فلا يوجد في هذه المنطقة سوى كوم وعلة ، وهو أحد أكوام ثلاثة كانت تتميز بها طبوغرافية الاسكندرية في العصر الإسلامي هي : كوم وعلة ، وكوم الدكة وكوم العافية » - المترجمان ﴾ .

١٢٩ - ﴿ إلى هنا ينتهي ما يترجمه Kahle حرفيـاً عن « الإلمام » . هذا ، وقد عقد الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتابه - الذي أشرنا إليه أكثر من مرة - فصـلا كاملا فيه دراسة شيقـة عن غزوة القبارصة للاسكندرية والآثار التي ترتبت على حركتهم هذه ؛ قارن ما ورد في هذا المقال عن هذه الغزوة بما جاء في الكتاب المذكور ، ص ٣٠٩ - ٣٦٨ : المترجمـان ﴾ .

١٣٠ - ﴿ جاء في « الإلمـام » : « (١١٠ ا) . . . وكانت مدة إقامة الفرنج من حين أتوا إلى الاسكندرية وظفروا بها الى آخـر من سافر منهم ثمانيـة أيام ، وذلك أنهم أتوهـا يوم الخميس حادي عشرين المحرم سنة سبع وستين وسبعمائة وسافر آخـرهم يوم الخميس الثامن والعشرين من الشهر المذكور . وكان سبب إقامتهم تلك الأيام لينتظـروا من البحر من يأتي من النجدة من مصر . فلما عاينوا وهم براكبهم العساكر أقبلت كالجراد المنتشر يقدمها الأمير الأتابكي يلبغا الخاسكي ، سافروا ... الخ » . (انظر أيضاً في رحيلهم . لوحة ١٨٦ ا) - المترجمان ﴾ .

١٢١ - (لم يحضر السلطان - فى الواقع - إلى الاسكندرية عقب الوقعة مباشرة ليشرف بنفسه على تلك الاستعدادات الحربيـــة بالمدينة كما ذكر Kahle هنا ، وإنما كان الذى أتى الاسكندرية الأمير يلبغا الخاصكى ، وهو الذى أشرف بنفسه على عمارة ماخربه الفرنج من منشئات مدنية وحربية ، ونفذ ذلك صلاح الدين بن عرام ؛ يدل على ذلك النص التـــالى الوارد فى « الإلمام » - بجانب الإشارة الواردة فى الحاشية السابقة :-

« (١٨٦ ا) . . . ولما دخل الأمير يلبغا الخاصكى الاسكندرية ورأى وشاهد ما آل أمرها إليه من الهدم والحـــريق والقتلى المطروحة بظاهرها وباطنها ، بكى على ما أصابها وأصاب أهلها فى أيام عزه وحكمه ، فلام نفسه على عدم التركيز بها حين بلغه أن العمارة بجزيرة قبرس . وأمر حينئذ الأمير صلاح (١٨٦ ب) الدين [بن عـــرام] بدفن القتلى ، فدفنها . وأمده بالأموال لعمارة ما خرب منها . فاجتهد فى العمارة ، وشق خندقا إلى جانب السور الذى توصلت منه الفرنج إلى الاسكندرية - لم يكن قبل ذلك - فعمره فى أسرع وقت . وهذا الخندق المتجدد محاذ للموضع المسمى من داخـــل السور بدار الصناعة وديوان الخمس ومجارى الأقنيـة ، وصله بالخندق الأصلى الذى أوله ساحل بحر السلسلة والباب الأخضر إلى قلعة ضرغام ، فزاد فى القلعة المذكورة ، إلى أن وصل ببحـر الميناء الشرقية وكأن البحر فى الزمان القـديم يضرب فى السور إلى عند قلعـــة ضرغام ، فلذلك تركت المتقدمون ذلك الموضع بغير خندق ، ثم انطرد البحر عن السور بعـــد ذلك ، فصار ذلك المكان بغير خندق ، وطـال الأمن وعـدم الخوف ، فأهملت المسلمون ذلك للوضع من حفر الخندق . وضرب الدهر ضرباته لإطـالة الزمان وتغير الأوقات وتقلب الدول ، وصارت المسلمون فى أمان واطمئنـان ليس عندهم [هم] ولا نكد لإطالة الأمد ، فوجد العدو مكانا خاليا من خندق ورجال وعدد . كما تقـدم ذكر غلق باب الديوان خـوفا من أن تدخل البضائع البلد منه بغير حق ، فتوصل [العـــدو] بسبب غلق بابه ومنع المقـــاتلة من

طلوع سوره من تلك الجهة إلى البلد فجاس فى خلال الديار وعربد . ثم إن الأمير صلاح الدين بن عرام عمر فى ولايته الثانية خندقا غربى السور ، وهو المكان المعروف بالمطرق ، أوله قلمة الباب الأخضر وآخره القلمة المجاورة لدار السلطان وباب الخوخه ، وصله بالخندق المحيط بالاسكندرية من جهة البر، فصار ذلك خندقا ومطرقا ومكمنا لدخول نجدة المسلمين منه فى خفاء لإقامة حائطه الذى يلى البحر إلى أن يخرجوا منه على حين غفله إلى الجزيرة وقت حرب الفرنج إن أتوا لذلك . ثم إنه أيضاً عمر المطرق الشرقى المحاذى لدار الإمارة . ثم غرق أيضاً الحجار بالمينة الغربية حفظا لمراكب المسلمين، وزم فوهة التغريق بسلسلة ضخمة . وعمل أيضا مشط حديد لباب الصناعة القريبة من جهة المطرق المذكور ، تخرج منه الرماة الى المينة وتدخل منه وقت الحرب وأبواب الاسكندرية حينئذ مغلقة ؛ وإن دهم العدو المسلمين ، دخلت المسلمون منه بحماية رماة السور التى بأعلاه إياهم إلى أن يدخلوا جميعاً . فإذا حصلوا داخله ، أرخى عقيب دخولهم المشط الذى لا يرفعه غير المسلمين من (١٨٧ ا) أعلى السور بالسرياقات الدائرة المحيطة على لوالب الأتراس لثقله وجفوه . وكانت عمارته للمطرق الغربى وباب المشط الحديد فى سنة تسع وستين وسبعمائة . . . فالأمير صلاح الدين بن عرام — المذكور — هو الذى غرق الحجار ، وحفر الخندق الجديد والمطرقين وما خرب من الاسكندرية ، وهو الذى أقام أبواب البحر الأول والثانى عوضاً عن البابين الذين أحرقتهما الفرنج . وكذلك أقام بابى رشيد التى أحرقتهما أهل الاسكندرية حين الوقعة لتجد النجدة الآتية من مصر مكانا مفتوحا تدخل منه إلى قتال الفرنج بها . كذلك أحرقت المسلمون باب الزهرى لتدخل النجدة منه أيضاً . ثم إن الأمير صلاح الدين أقام أيضاً أبواب دار الصناعة الشرقية وأبواب الديوان ، وسد الباب الأخضر وباب الخوخه وباب الزهرى وباب الأقنية ؛ لحصل بعمله المستجدين ، النفع للمسلمين . . . (١٩٣ ا) . . . ثم إن الأمير يلبغا جد فى عمارة المراكب

الحربية بمصر والشام ، لجزر منها مائة وخمسين مركبا منها طرايد الخيل وشوانى الغـــزو . فلما كملت العمارة المصرية ـ وكانت مائة مركب أشحنها بالرجال الأبطال ، وبالأسلحة الثقال ـ وأمر الغز أن تلبس الزرد النضيد ومصفحات الحديد بالبر ، فلبستها وركبت خيولها . . . الخ » ـ المترجمان ﴾ .

١٣٢ ـ قام الدكتور عـــزيز سوريال عطية بدراسة لجـــزأى مخطوطة برلين (والجزء الثالث منها يوجد فى القاهـــرة) وأكد الافتراض الذى ذهب إليـــه Gildemeister (a. a. O., S. 431 ; vgl. Herzsohn, a. a. O., S. XII, Note b) أن مؤلف هذه المخطوطة هو محمد بن قاسم بن محمـــد النويرى المالكى السكندرى . وقـــد ورد اسم النويرى فى اشعار له بمخطوطـــة برلين (ورقة ١٢٠ ا ، وورقة ١٦٩ ا) ؛ قارن ذلك بما أورده حاجى خليفـــة (نشر Flugel ، ج ٢ ، ص ١٠٧) وابن حجـــر العسقلانى (الدرر الكامنة ، نشر Krenkow ، ج ٤ ، ص ١٤٢) .

﴿ لم يعتبر Kahle صفحة العنوان الصفحة الأولى من نسخة برلين ، وهو غير ما أخذنا به هنا فى ترقيم صفحات المخطوطة ، وعلى ذلك يقابل موقع الورقتين ١٢٠ ا و ١٦٩ ا اللتين ذكرهما Kahle هنا الورقتين ١١٩ ا و ١٦٨ ا ؛ قارن ذلك بما جاء هنا فى ص ٤١ و ه ٢٤ بنفس الصفحة .

واقـد رثى النويرى مدينة الاسكندرية بقصيدة طويلة تستغـــرق من (١١٧ ا) إلى (١١٩ ا)، ومطلعها :

عاذلى لا تلم وخل ملامى ∴ فعيونى بعد الدموع دوامى

ويقول فيهـــا :

فالنويرى قد رثى الثغر حقا ∴ عام سبع ، يارخه من عام

بعد ستين ، بعد سبع مئين ∴ وأتى بالتـــاريخ الإعـلام

وفى قصيدة أخـــرى له (١٦٨ ا) يتوعد فيهـا القبرصى لو سولت له

نفسه بالإغارة مرة أخرى على الاسكندرية ، ويتفاءل بذلك فيبدأها بقوله :

الهنا للمسلمين بالظفر ∴ من أعادى الله عباد الصور

ويقول فيها :

فالنويرى قال ذا تفاؤلا ∴ قبل أن يأتى ، وللفأل أثر

هذا ، وقد ذكر النويرى اسمه أيضاً فى أبيات أخرى موجودة فى نسخة الهند (١٦٤ ا) وساقطة فى نسخة برلين ، فيقول فى معرض ذكره اترميم جامعى الاسكندرية الشرقى والغربى فى عام ٧٧٢ ه :

لسان النويرى بالمديح مقصر ∴ بما قاله فى الجامعين وأودعا

كما ورد اسم النويرى مرة رابعة فى نسخة الهند (٢٦٤ ا) — ولم تلحق نسخة برلين بهذه الصفحة — فى أبيات قصيدة له يمدح بها الرايس إبراهيم التازى ، رايس دار الصناعة بالاسكندرية . وقد جاء اسمه فى هذا البيت محرفا ، كما انمحت فيه الكلمتان الأخيرتان - بفعل الرطوبة - من الشطر الثانى:

فالمورره سره الفعل الذى ∴ فعل التازى . . . . . .

وصحته كما ورد فى الجزء الأخير من نسخة دار الكتب (١٠٣ ا) :—

فالنويرى سره الفعل الذى ∴ فعل التازى المزبر الغازى

أما بلده (النويرة) ، فقد ذكرها صراحة فى (١٦٥ ب) من نسخة الهند — وهى ساقطة فى نسخة برلين — ولهذا النص أهميته ، إذ هو يلقى ضوءاً على نشأته الأولى ومهنته قبل النزوح إلى الاسكندرية للاستقرار بها حيث اشتغل ناسخا كما أشار هو من قبل (راجع ماقلت هنا بالحاشية رقم ٢٣) ؛ فيقول فى صدد خروجه من الاسكندرية فارا بنفسه وبأهله حين الوقعة :

« . . . ولما ظفر القبرسى بالاسكندرية فى آخر المحرم سنة سبع وستين

وسبعمائة وشرد غالب أهلها منها ، خرجت بعيالى معهم ، فقصدت بلدة النويرة بالصعيد الأدنى من مصر ، (وكان) إذ ذاك مدرس المدرسة المالكية بمدينة الفيوم الشيخ الإمام العالم شرف الدين أبو حفص عمر بن الشيخ الإمام العالم تاج (الدين) — المدرس بها قبله — ابن الشيخ الامام العالم شرف الدين سيد الناس ، فصار متشوقا لرؤيتى ، وذلك للصحبة التى بينى وبينه ببلد النويرة فى المكتب ، وبالاشتغال بالقاهرة بالمدرسة المنصورة ، لأخبره بما اتفق بالاسكندرية ، فمدحته بأبيات ... الخ » — المترجم) .

*

اللقاء بين التصوف الاسلامى والتجريد التشكيلى

محمود حلمى

اذا كان الموضوع موضوع الفن ومدارسه فلا يعنينا هنا الا المدرسة التجريدية فى مرحلتها التى مرجعه فيها نفسها بالمفهوم الصوفى ، أى أننا لا يعنينا من الفن الا الاتجاه الذى تحددت معالمه داخل مدار خاص ابتعد بها عن شكلها الأول الذى ذهب بالالوان والخطوط الى الآفاق التى تتنفس فيها الموسيقى . وقد تحقق هذا الاتجاه على يدى « فاسيلى كاندنسكى » الذى حول الموضوع التشكيلى الى لاموضوع فاعطت الصورة للعين نفس المذاق الذى تعطيه الموسيقى للاذن ، وهكذا حطم « كاندنسكى » الحواجز الفاصلة التى كانت تفصل بين الموسيقى والتصوير التشكيلى ، كما يقول سير ميكل سادلر ، وهذا هو مبدأ وحدانية الفن الاسلامى الذى يعرفه دكتور « أرنست كينل » : « ريشة الفنان تصور الموسيقى »

ثم جاء الشكل الآخر الذى نحوا اليه الصورة التشكيلية ، وكان هذا من ابداع الفنان الهولندى « بيت مندريان » وقد اتسم هذا الاتجاه بالسمت الزخرفى الهندسى ، وتبعية الموضوع التشكيلى للشكل الهندسى هذا ليس بالأمر الجديد على الفن ذاته حيث يمكننا أن نتلمسه بوضوح فى الارابسك الاسلامى غير أن الفن الاسلامى فى جوهره يتميز بأنه « تجريد روحى » ، وهذه الصفة جاءت نتيجة صياغة النشاط الانسانى كله بتلك المبادىء الخالصة والقيم الصافية التى انبعثت من روح العقيدة الاسلامية .

وجدير بالذكر أن نضع موضع الاعتبار أن وجهة التلاقى بين الفن التجريدى والتشكيلى المعاصر سواء فى شكله التعبيرى أو فى اتجاهه الهندسى وبين الفنون الاسلامية ، ان كلا الفنين الاسلامى والتجريدى المعاصر يتناولان اللاموضوعى ، وان كلا الفنين يرفضان المحاكاة والتقليد ، هذا من الوجهة « العرضية » ، أما من وجهة « الجوهر » فان نقطة التلاقى عندهما نجدها فى أن الفن عند كليهما يعمل من داخل ذاته ومن صميم نفسه ، وقد يستعير أحيانا من الخارج بعض أشكاله ولكن

روحه القائمة فى صميمه تبقى دائما وأبدا الحافز الرئيسى لقوامه الباطنى ومصب فوالبه ومبعث طرازه ومنبت مناحيه ومصدر الهامه .

وقد قال كاندنسكى ومندريان « عن أعمالهما هذه اللاموضوعية إنما قصد بها الابتعاد عن الواقع الموضوعى إلى واقع روحى أمثل . وكان يتهوفن من قبلهما يصر على أن مؤلفاته التى ننظر اليها غالبا بوصفها خلاصة الموسيقى للطاقة البحتة ما هى إلا تعبير صادق عن فهمه لمعانى الحياة نفسها وصورها الباطنية .

أما الرواد الذين جاءوا بعد « كاندنسكى ومندريان » فقد تشعب الكثير منهم إلى مناح مختلفة وطرق متباينة ، ثم استقر الامر بالفنانين الذين رفضوا أن تكون التجربة تجربة حواس فجعلوا للصورة رموزاً وأشارات صوفيــة لها معان غيبية مجردة ووضعوا فيها حقيقة روحية تعبر عن جوهر الوجود ذاته ، ومن هنا كانت موضوعية اللاموضوع التى تناولت شكلا له وجود سابق على ماهيته ، وبهذا أصبح الفن التجريدى عملا حدسيا قبل أن يكون رؤية ، وتذوقه يحتم عمل البصيرة قبل أعمال البصر ، وعندما صور ديلونى لوحته النوافذ المفتوحة قالوا عنهـا انها نوافذ مفتوحة على حقيقة جديدة .

ولسنا هنا نتتبع حقيقة التصوف الإسلامى فى أسبابه الرئيسية ، وهل كانت نشأته الاولى قائمة على الركائز الروحيــة الخالصة التى ملأت أفئدة بعض المسلمين ، ومصدرها حياة الرسول الروحية مثلا . أما أن التصوف جنوح آرى إلى غيبية معينة تلمستها العقلية الآرية التى دخلت الاسلام ولم تفهم طبيعته الحقيقية ، أو هل هو استغراقة هندية سلبية أخذت سبيلها إلى الكيان العاطفى الاسلامى الذى عارض مظاهر البذخ والوان الترف الشائع فى المجتمع الاسلامى أبان العهد العباسى . أم أن التصوف الاسلامى ما كان إلا الجذور المرتدة إلى الافلاطونية المحدثة والتى كان لها وجود فى قاع وجـدان الناس الذين إمتزج بعضهم بالبعض فى رقعة متلاصقة قامت فيها وعاشت يوما تلك المدرسة . وإذا كانت هذه الاسباب كلها أو بعضها تعتبر تفسيراً إجتهاديا لاشكال التصوف الاسلامى وصورة فقط ، فان حقيقة التصوف الاسلامى تعبر عن حاجة النفس الانسانية إلى الاستكانة إلى منطقة روحية خالصة ،

وإلى تناول المعرفة بالحدس والذوق والوجدان ، وذلك لأن النفس الانسانية تشعر بالخواء عندما تجد نفسها بحكم الحياة المادية الصرفة منصرفة إلى حقائق المحسوسات وحدها بما يجعلها تعيش في خواء من أثر تناولها الحياة في شكلها الظاهرى ، وأعنى بهذا قصور النفس وعجزها في تلك الحالة عن التفاعل مع الحياة في جانبيها الروحى والمادى على السواء .

والتصوف الحقيقى أمر نادر كما يقول برجسون وأن بذوره قد وجدت في كل مكان وزمان والصوفى العظيم إنما هو تلك الشخصية النادرة التى تستطيع أن تتجاوز الحدود التى عينتها للنوع البشرى ماديته .

ويجدر بنا أن نأتى على رأى الامام الغزالى فى حقيقة التصوف الاسلامى الخالص النابع من الانسان المسلم الذى لا يتبع غيره ولا يقلد أحداً ، يقول الامام الغزالى : « من قال أن الحقيقة تخالف الشريعة ، والباطن يخالف الظاهر ، فهو إلى الكفر أقرب ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فهى غير محصلة » .

ونلاحظ من حقيقة التصوف الاسلامى فى منطق الامام الغزالى أنه برىء كل البراءة من السلبية القاصرة التى أشرنا اليها فيما سبق ، فانه حينما رفض التباين كليا أو جزئياً بين الشريعة والحقيقة واعتبرهما شيئا واحداً ، فقد جمع بين طرفى الحياة المادى والروحى فى نسق واحد هو النسق الاسلامى ونظريته فى فهم الحياة .

وقد كانت حياة الامام الغزالى تطبيقاً لهذا المنهج سواء فى العقيدة أو فى السلوك ، فعنده من وجهة السلوك أن النفس الانسانية تستطيع أن تحقق كمالها الذاتى ، ومن وجهة العقيدة تظل الالوهية بعيدة عن أن تشاركها النفس كمالها المطلق أو أو تندمج بها أو تحل فيها . وغاية ما تتسع له طاقة النفس المتطلعة للكمال أن تقترب شيئا ما من أفق الالوهية الاعلى .

وهذا بعينه هو التصوف الاسلامى فى صميمه ، ويمكننا أن نجد له تعبيراً واضحاً فى لغة القرآن ، وهذا التعبير هو الربانية وهى كلمة وردت بصيغ متعددة فى كتاب الله . وقد أدرك المستشرق « جب » هذا المعنى وعبر عنه فى قوله

« أن التصوف الاسلامى ذاته قد شاد صرحه الشامخ على أسس النظرات القرآنية » .

والتصوف الاسلامى فى صميمه يعبر عن فلسفة روحية إسلامية خالصة ، سيان كانت هذه الفلسفة فى الوسائل أو الغايات .

وواضح بعد كل هذا أن نستبعد من مجال التصوف الاسلامى الخالص كافة الانحرافات والشطحات التى يمثلها الحلاج فى حلوله ، وابن عربى فى اتحاده ، والسهروردى فى شهوده ، وكل ماهو من هذا القبيل ، ويستبعد الامام الغزالى هذه الشطحات وغيرها من الافكار وعلى الاخص فكرة وحدة الوجود عن التصور الاسلامى الخالص فى قوله : « أن الله تعالى ذات واحدة مخالفة للحوادث ، وأنه بمقدار ما يتحقق فى النفس الانسانية من صفات الكمال الالهية ، يكون استعدادها لمعرفة الله وأن العبد عبد والرب رب ، وان يصير أحدهما الآخر البتة . أما علمنا بالله فموقوف على إرادته تعالى » ، وبهذاالمعنى الروحى العميق فهم الغزالى الالوهية كقرب الله من القلوب . ولقد تبلور التصوف فى نفسه فى قوله « ينتهى الامر إلى (قرب) يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول وكل هذا خطأ » . وهذه أربعة أشكال من التصوف رفض الامام الغزالى ثلاثة منها لشطوحها وأخذ بالشكل الاول وهو « القرب » وجعله قوام تصوفه ، وهو هنا استمد جوهر هذا التصوف من القرآن الكريم ومن آياته التى تقول « وإذا سألك عبادى عنى فانى قريب » ، وكذلك « ونحن أقرب اليه منكم » ، وكذلك « ونحن أقرب اليه من حبل الوريد » .

وإذا تكلمنا عن المذهب التشكيلى التجريدى ، فعلينا قبل كل شىء أن نضع المذاهب الفنية التى تقدمته فى قاع الوعاء الفنى للثقافة الانسانية لان المذاهب السابقة تمدنا دائما بالخطوط الرئيسية التى بدونها لا يتسنى لنا فهم اى مذهب جديد .

وأهمية الاحاطة بهذه المذاهب تنحصر فى أن كل مذهب ما هو إلا حلقة من سلسلة تاريخ الفنون التشكيلية ، وكل حلقة بحكم وجودها الموضوعى تكمل ما قبلها

عدا انها أساس للحلقة التي بعدها ، والشكل الذاتي لكل حلقة يعبر عن مذهب من مذاهب الفن ، ولهذا يجب الالمام بكل هذه المذاهب الفنية المتقدمة لتكون كمدخل شامل عندما نريد أن نتعرف على المذهب التجريدي ، ومن الطبيعي أن يأتي هذا بعد أن نضع موضع التمييز الأصول والفروع داخل الاطار الكلي للفنون التشكيلية وذلك من ناحية تطورها ثم من ناحية قوامها الروحي لأن أي مذهب لا يتسنى له البقاء إلا إذا توفر له هذان الوجهان . هذا بعد أن نكون قد فرقنا بين الجذور الرئيسية والفروع الشكلية حتى نتمكن من السير في طريق مستقيم نحو الفهم الواضح والإدراك الصحيح ، أو بعبارة أدق أن نضع أيدينا على الحقائق المرتبطة بعضها ببعض والتي كونت المذهب التجريدي ، ومن ثم تأتي الدراسة التحليلية على امتداد الزمان .

ونحن بهذا لا نضع المذهب التجريدي موضع الوضوح فحسب ، بل نضع جميع الاتجاهات الفنية المعاصرة ، ثم يبقى أن ننظر بعين الاعتبار ومن زاوية المحتوى الكلي للمعرفة الإنسانية آثار علم الاجتماع والاقتصاد والمناهج الفلسفية والأفكار السياسية ومدى الأثر المباشر وغير المباشر لا على المذهب الفني فحسب بل على الوجود الموضوعي الإنساني بجملته .

ويكمن جانب كبير من قوة الفن التشكيلي التجريدي في تأثيره على حواسنا أولا ثم ينتقل التأثير إلى أعماق نفوسنا حيث لا تأثير مطلقاً للتذوق الحسي أو لمتع الحواس كلها . وحيث تتكون الصلات الخالصة النقية التي تربط كينونة الإنسان بماهيته ووجوده الموضوعي بأصله الروحي . فالصورة ذات تفاعلين ، التفاعل الأول ينتهي إلى الإدراك الحسي ، والتفاعل الثاني يأخذ سبيله إلى المضمون الجوهر وهذا فيما أعتقد ما أراد أن يعبر عنه شبنهور في تعريف معنى الموسيقى عندما قال « إن الموسيقى تكرار لعالم الحواس بأثره وانها الطريقة الأخرى للتعبير عن الجوهر » .

وهكذا تتجمع هذه الأطراف كلها لنحصل كما يقول دينس هويسمان على سلم تصاعدي من فن مزيف إلى ما يدنو من الفن ، أو من شبه الفن إلى الفن الخالص ،

وعلى ذلك يكون الفن التجريدى هو نهاية ما وصل اليه السابقون .

ولكن كيف يكون الفن التجريدى نهاية ما وصل اليه السابقون ؟ قبل أن نتناول هذا الأمر أحب أن آتى بكلمة لسانتيانا كتبت سنة ١٨٩٦ تعد إرهاصاً للتجريد التشكيلى المعاصر ، فقد كتب فى كتابه القيم « الإحساس بالجمال » عن تحليل قيم اللون فقال « تختلف قيم الألوان اختلافا بيناً وهى تشبه فى ذلك القيم المختلفة التى للاحساسات الأخرى . وكما ان الروائح الذكية والفائحة والنغمات العالية او المنخفضة أو المقامات الكبرى والصغرى تختلف فيما بينها بسبب إختلاف آثارها للحواس كذلك نجد أن اللون الأحمر يختلف عن اللون الأخضر والأخضر عن البنفسجى ولكل من هذه الألون عملية عصبية خاصة بها ، ومن ثم كان لكل منها قيمة خاصة وهذه الصفة العاطفية للالوان لها علاقة بالصفة العاطفية للاحساسات الأخرى ، ولهذا فلا ينبغى أن نعجب إذا كانت درجة الذبذبة العليا التى تنتج صوتاً حاداً فى الأذن تنطوى إلى حد ما على نفس الاحساس الذى تولده درجة عليا من الذبذبة التى تنتج للعين لونا مثل اللون البنفسجى ، مع أن الكثيرين يعجزون عن إدراك هذه العلاقات فانه ليس من المستحيل أن ننمى الاحساس بها ، فمن آثار اللون ما يلذ له الجميع ، فى حين أن بعضها الاخر يولد إحساساً بالنشاز يكاد يشبه النشاز فى الموسيقى . وإذا طورنا حساسيتنا هذه على مجال اوسع فقد يؤدى ذلك إلى ظهور فن جديد مجرد يعالج الألوان كما يعالج فن الموسيقى الصوت .

وهكذا نجد ان ما تحقق على يد كاندنسكى سنة ١٩١٠ جرى قبل ذلك فى الواعية الذهنية لجورج سانتيانا .

ولنرجع مرة أخرى إلى ما إنتهى اليه الرأى فى ان التجريد هو نهاية ما وصل اليه السابقون ، الدراسة التحليلية للفن تنتهى إلى أن روح الفن ما هى إلا شفافية الفنان وقدرته على إدراك حقائق الحياة خلال الجزيئات التى يتناولها بالتشكيل ، فالفن ربط ما هو جزئى ظاهر للعيـــين باد للحواس وما هو مستتر خفى لا يدرك بالحــــواس .

وعلى هدى من يقين الفنان المتأمل يتخطى الحدود التى عينتها طبيعته كانسان ، وبعد أن تحدد العلاقة بين الرؤية كادراك وبين التصور التأملى ، وبعد أن نجمع بين التشكيل الزمانى للمكان نبنى رأينا بان الصورة التجريدية عمــــل منبثق عن النفس الانسانية النقية متحقق فى ذات الفنان. فالفنان ولا شك قد تساءل عن هذا الكون المادى ... وهل هو وحده محور التفكير والعقل هو مركـز الثقل بالنسبة للحيـاة نفسها ... الفنان هنا يضع السؤال موضع المحاولة التى حاولها الإنسان المفكر المتأمل وما زال يحاولها منـــذ بدأ يتلمس الحقيقة ، الفنان الآن بعيداً عن أزمة الإنسان المعاصر التى يجب أن تسمى « نكبة الإنسان المعــاصر » قد اهتزت نفسه المفاهيم الجديدة بعدما كانت أنفاسه تتلاحق وراء المذاهب المتعددة من الاتباعية الرومانتيكية والواقعية والانطباعية والحوشية والتعبيرية والتكعيبية والدادية والسريالية ، وهو بعد كل هذه المدارس ومؤثراتها وقف أمام أفق جديد بعد أن وجد نفسه قد تحولت عن التناسق الشكلى والانفعالات العاطفية والتأثيرية البصرية والجموح النفسى والمتاهات اللاشعورية ، لأن إدراكه الحسى الطبيعى لكل هذه المذاهب لم يعد له إنعكاس فى نفسه الصادية إلى معالم جديدة وحقائق مختلفة ، أنه قد تطلع إلى نوع من الفن يقوم على التأمل والكشف لأنه إدراك أن المتأمل الذى يصير ذات عارفه خالصة متحررة ، وهـكذا يصير الفن كشفاً تشكيلياً وجدانياً قائماً على الحدس ، وهنا تقترب النفس الانسانية من قمتها لأنها بلا حدود ولا حدود تقترب من حافة عالم الحقيقة والجوهر . ومن ثم يقترب العقل الحدسى من العقل التأملى ، ومثل هــذا الاقتراب صعب البلوغ ولكنه ليس بالأمر المستحيـــل على المتصوفين .

الفنان عند ما سلك هذا الطريق فقد حدد لنفسه أصعب المسالك وأشق الدروب ، أنه كان على بينة من أن غيره قد اختط طرقا اعتمد فيها على نظرة قاصرة لا ترى فى الحياة إلا أمراً واقعيا لا وجود له إلا داخل الظواهر المادية والتجربة الحسية فقط اعتماداً على العقل وقضاياه البحتة المرتبطة برابطة الاستنباط ومن هـــذا القبيل ما حاوله عالم النفس دى لاكروا من إثبات أن العمل الفنى ما هو إلا صنعة وعمل وإرادة وليس فى زعمه ذوقا صوفياً أو حساً ذاتياً أو الهاماً الاهياً ، أما الفنان الذى

المتأمل فهو بوصفه إنسانا أيضا يدرك أنه لا يعيش بمعزل عن الحياة فهو لا يمكنه أن ينصرف إلى المادة والعقل وحدهما ويدع الروح والوجدان جانباً ، فالأمر كما يدركه ليس صراعا بين المادة والروح أو بين العقل والوجدان ولا إنعزال جانب منهما عن الجانب الاخر . وهو كانسان يعرف أنه محدود الكينونة من ناحية الزمان والمكان ومحدود الكينونة من ناحية العقل والإدراك .

وهو كفنان نقى متأمل يصوغ صورة الوجود الداخلى والخارجى من الزاوية الصوفية حيث أيقن بعد إيمان أنه عرف حقيقة الوجود فى ذاتها لأنها توجد فى ذاته هو ، وأن الفن والتصوف يلتقيان عند أعماق النفس كما يلتقيان فى أعماق الوجود ذاته والتجربة الصوفية والتجربة التجريدية تنتهى إلى نوع خاص من المعرفة ، وعلى هذا نرى أن الفنان والصوفى كلاهما يدرك ويعرف ويتذوق الوجـــود كاملا وهو يعالج تجربة صوفية أو فنية ، فالفن والتصوف صفاء ومشاهدة وهكذا تنتهى هذه التجربة الصوفية وهذه التجربة التشكيلية التجريدية إلى حقيقة واحدة وهى أن كل ذرة فى الوجود تلبس فى كل آن صورة جديدة تفيض عليها من مصدر الوجود ثم يخلعها فى اللحظة التالية إلى صورة أخرى ، وأن عالم الممكنات فى كل آن فى خلق جديد وان كنا لا ندرك ذلك لسرعة ما يتعاقب على العالم من صور الفناء والبقاء ، كما إننا لا ندرك من جذوة النار المتحركة فى حركة دائرية سريعة إلا دائرة متصلة من النار .

وبهذا نجد أن النسبية والذاتية تجمع بين التصوف والتجريد التشكيلى لأن الصورة التجريدية حالة رؤية وبصيرة وهى كشف عند الصوفى فى استغراق تأمله ، الفنان يحقق فى حالة وجوده الرؤية ويترجمها إلى صورة تشكيلية ، والصوفى يستطيع أن يقول فى حالة وجده وقد سئل عما يراه « المشهد هنـــاك لمن يستطيع أن يراه » أو على حد قول « برجسون » : « أن الرؤية مشاركة وجدانية ننتقل عن طريقها إلى جوهر الموضوع لكيما نندمج مع ما فى هذا الموضوع من إصالة فريدة أو بالتالى مع ما ليس فى الإمكان التعبير عنه .

وهذا الذى لا يمكن التعبير عنه يقول فيه العارف بالله سنائى « رجعت عن كل

ما قلته لأنه ليس فى اللفظ معنى ولا للمعنى لفظ » .

أما العارف بالله فريد الدين العطار فيقول « أن فى قلبى أسرارا لا يفضى بها لأنه لا يستطيع الابانة عنها . . . أو لا يستحسن أن يفشيها للناس » وينتهى من هذا ليقول « عالمك وعالمى وراء الادراك » .

أما مولانا جلال الدين الرومى فيشبه هذا الأمر بالهمس الصامت عندما يقول :

لو تسنى من صديق لى فم قلت ، كالناى حديثاً أكتم

وفى هذا المعنى يقول سلطان العاشقين الامام العارف بالله عمر بن الفارض :

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوا ونور ولا نار وروح ولا جسم

ويذهب به الوجد فيقول :

ولولا شذاها ما اهتديت لحانها ولولا سناها ما تصورها الوهم

ولنرجع مرة أخرى إلى الامام الغزالى ليوضح لنا ما ليس فى الامكان التعبير عنه أنه قرب العالم الخارجى من العالم الباطنى والمادى من الروحى والجزئى من الكلى فى قوله « مثاله المرآة المجلوة إذ ليس لها لون فى نفسها بل لونها لون الحاضر فيها ، وكذلك الزجاجة فانها تحكى لون قرارها ولونها لون الحاضر فيها وليس لها فى نفسها صورة بل صورتها قبول الصورة ، ولونها هو هيئة الاستعداد لقبول الألوان ويعبر عن هذه الحقيقة قول الشاعر :

رق الزجاج ورافت الخمر وتشابها تشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر



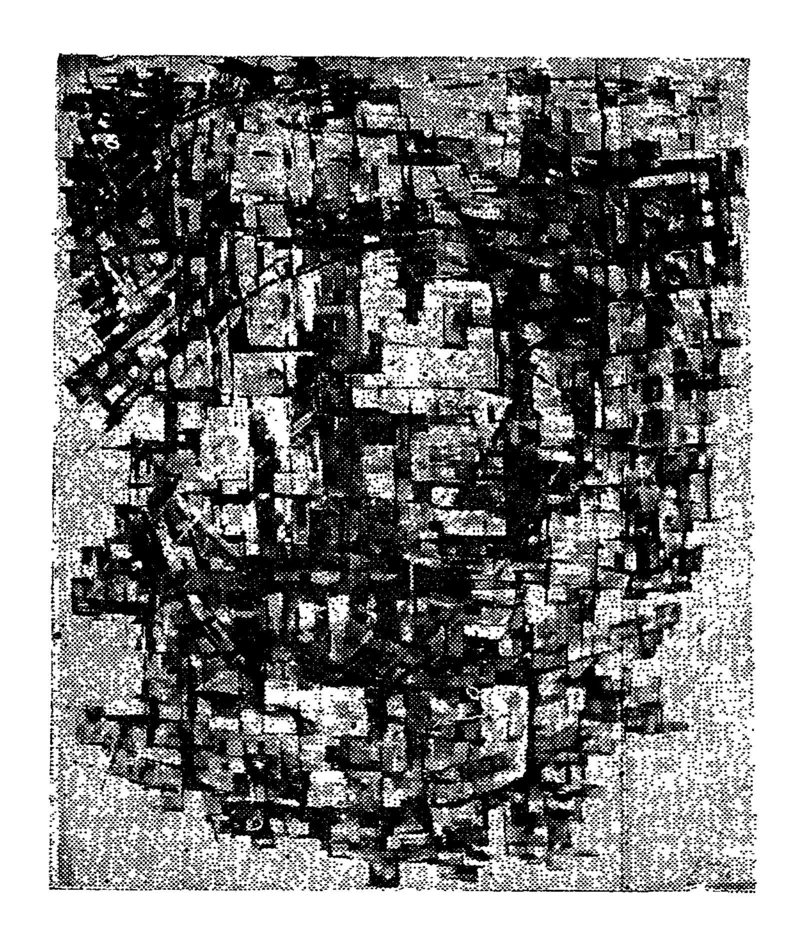


(١) تجـــريد (محمود حلمى)





(٢) تجـــريد (محمود حلمي)



(٣) تجـــريد (محمود حلمي)





7 – Morel, Edmund, Morocco in Diplomacy, London 1912.

8 – Palmer, Norman, & Howard Perkins, International Relations, 1945.

9 – Sobhy, H., The Moroccan Question , April 1906 - Feb. 1909. (Ph. D. Thesis, University of London).

10 – Sobhy, H, The Scramble For Morocco, 1884 - 1904. (Arabic), Alex. 1965.

(التنـافس الاستعمارى الأوربى فى المغرب - ١٨٨٤ - ١٩٠٤ دار المعارف - الاسكندرية ١٩٦٥ .)

11 – Tardieu, André, Le Mystère d'Agadir. Paris 1912.

12 – Trevèlyan, Grey of Fallodon, 1940.

—✳—

References

Documentary Evidence

1 - British Foreign Office Records ;
F.O. 371/93 & 371/94 & 371/281 & 371/285 .

2 - German Foreign Ministery Archives (1867-1920)
Marokko 2 Bd. 11, Marokko 4 Bd. 131, Marokko 25/5 Bd. 1 & Marokko 25/5 Bd. 2.

3 - Documents Diplomatiques Français :
2ème. S, Tomes 2, 4, 9 (II) & 11

4 - Papers Relating To the Foreign Relations of the U. S. A. 1906; The Status At large of the U. S. A., Vol. 34.

Other Sources

1 - Anderson Eugene Newton, The First Moroccan Crisis, 1904-1906., 1930.

2 - Ashmead-Bartlett, E., The Passing of the shereefian Empire, London 1910.

3 - Bernard, Le Maroc, 1931.

4 - Buel, Raymond L., International Relations, 1929.

5 - Famchon, Yves, Le Maroc d'Algeciras à la souverainete economiqué, Paris 1957.

6 - French Morocco, F. O. Handbooks. No. 108. June 1919.

Ogilvy,	British cavalry instructor in the Moorish army.
Pichon,	French Foreign Minister, 1906 1911.
Prinetti,	Italian Foreign Minister.
Radolin,	German Ambassador in Paris, 1900-1910.
Radowitz,	German Ambassador in Madrid, 1892-1908.
Regnault,	French Minister in Tangier.
Rosen, Dr.,	German Minister in Tangier.
Rottenberg,	German engineer in the service of the Sultan.
Saint-Aulaire,	Secretary of the French Legation in Tangier.
Sternburg, Speck,	German Ambassador in Washington.
Tittoni,	Italian Foreign Minister.
Tschirschky,	German Foreign Minister.
Tschudi,	German officer, engineer in the service of the Sultan.
Vassel,	German Vice-Consul in Fez.
Visconti Venosta,	Italian Foreign Minister.
White,	Secretary of the British Legation in Tangier,
William II,	German Kaiser



INDEX

Barrington, Sir Eric,	Assistant Secretary in the British F. O.
Barrère,	French Ambassador in Rome. 1897 - 1924.
Bertie, Sir Francis,	British Ambassador in Paris, 1905 - 1918.
Brochet,	French engineer of public works in Tunis.
Cambon, Paul	French Ambassador in London, 1898 - 1920.
Crowe, Eyre,	Senior Clerk in the British F.O.
Grey, Sir Edward,	British Foreign Minister, 1905 1916.
Guebbas, Si Mohammad,	Moorish Minister of War.
Huber, Lieutenant-Colonel,	German officer attached to Rosen's mission to Fez.
Jennisch,	Councillor, attached to the German Imperial Court.
Klaas,	Belgian engineer of bridges and roads.
Langwerth,	First Secretary of the German Legation in Tangier, 1905-1908
Lascelles,	British Ambassador in Berlin, 1895-1908.
Lowther, Sir Gerard	British Minister in Tangier.
Maclean, Kaid,	British instructor of the Sultan's army.

Abbreviations

A. Amt.	Auswatrigès Amt.
Art.	Aticle.
Bd.,	Band. (Volume, followed by its number.)
D. D. F.	Documents Diplomatiques Français.
F.,	Frame. (Followed by its numbèr as in the microfilm reel.)
F. O.,	Foreign Office.
G. A.,	German Archives.
M.	Marokko. " Aktenzeichen " , followed by its number as referred to in the " Catalogue of Files and Microfilms of the German Foreign Ministery Archives 1867 - 1920."
S.,	Serie.
T.,	Tome.
Tel.,	Tèlegram.

—✳—

to allow her special economic interest there, as that would be contrary to the Act of Algeciras, and she gave the French to understand this point of view. In the accord of 8 July 1905 between Germany and France, Germany recognized a special interest for France " à ce que l'ordre règne dans l'Empire cherifien. " The coference of Algeciras realized a practical expression of that principle by giving to France a preponderant mandate in organizing the Maghreb police in eight open ports. But Germany could not cede to France any other point that would devélop her preponderance or harm German interests in Morocco. [1] It was thus clear that at all events a quarrel between French and German nationals in Morocco was an obstacle to an understanding between Paris and Berlin.

Yet French preponderance in the field had no match. Regardless of the fact that all enterprises could be realized by means of adjudication the French were the masters in the commissions of adjudication and they had a favourable majority in the Diplomatic corps at Tangier. Besides, this preponderance was increased by the appointment of a French engineer for public works [2] And it was ultimately determined by the guns of Casablanca which had a greater effect than all agreements to turn matters in Morocco to the advantage of the French.

---

1) Aufzeichnung bet. Marokko, 15 June 1907, (G.A.), M. 4, Bd.1 31, F, 165.

2) See: Saint-Aulaire to Pichon, 26 Aug.1907, D D.F, 2ème. S,T. 11, No. 148.

he American Government too backed the French view. he U. S. A. hoped that the agreements of Algeciras ould lead to tranquillity and harmony in Morocco and › she was astonished to see what she regarded as a mple question causing so much difficulty there. [1]

The French were actually eager to secure for iemselves all major posts in the Moorish Empire. heir military intervention in Ujda (29 March 1907) and , Casablanca (5 August 1907) , however, turned the ıestions of the open door in their favour.

In their negotiations with Germany in 1907 to settle ıè quarrel over Morocco, [2] they suggested that the ›sired entente should include a declaration of disintere-edness on the part of Germany in Morocco. This , so ıey contemplated, could be effected by the immediate call, for reason of health, of Major Von Tschudi, ıd then the complete retreat of Germany from orocco would be effected by the promise of the Germans ›t to present candidates for the posts of director of oorish public services ... [3]

Germany, on the other hand, could not recognize :ench political or economic preponderance in Morocco

---

1) Sternburg to A. Amt, 21 & 26 March 1907, (G. A.) M. 25/5, Bd 1, F.) & 486.

2) See : Sobhy, The Moroccan Question (April 1906 - Feb. 1909) ttempts at Rapprochement, April-September 1907 pp. 360 - 383).

3) See : Saint-Aulaire to Pichon, 23 July 1907, D. D. F. 2ème. S., T. 11, . 89.

Frenchman, a Spaniard, and a third of any other nationality. This, so Spain considered, would leave nothing to the Makhzen. (1)

For the same reason, the Italian Minister at Tangier was instructed to give his vote to the French candidate. (2) In fact, Italy had to work in harmony with France in Morocco. For Tittoni, the Italian Foreign Minister, it was an embarrassing position and he approached the German Government to instruct Rosen to support his Italian colleague. (3) Germany, on the other hand, refused the Spanish suggestion. Tschirschky, however, instructed Rosen and Radolin that Germany could accept a Spaniard as first adjoint only if the first engineer were not French. (4

In the engineer question, France was almost supported by all the Powers. The Austrian Government instructed their representative at Tangier to vote for a French engineer and a Spanish adjoint. This, in their opinion, was a guarantee for the economic equality for all nations which the Act of Algeciras had stipulated.[5]

---

1) *Radowitz to A. Amt*, 23 *May* 1907 (*G. A.*) *M.* 25/5, *Bd.* 2. *F.* 560 ; *Rosen to A. Amt* 13 *May* 1907, (*G A.*) *M.* 25/5, *Bd.* 2. *F. 548.*

2) *German Embassy (Rome), to A. Amt, 26 May 1907,* (*G. A.*) *M. 25/5 Bd.* 2, *F.* 584,

3) *Ibid.*

4) *Tschirschky to Rosen & Radolin, 15 May* 1907, (*G. A.*) *M.* 25/5, *Bd.* 2, *F.* 549.

5) *Langwerth to A. Amt,* 31 *May* 1907. (*G. A.*), *M.* 25/5 *Bd,* 2, *F.* 616.

candidate. (1) But the French made urgent representations to the different Powers about the selection of a Belgian engineer, for they were eager by all means to put a stop to the idea of a neutral candidate, and a Belgian in particular. (2)

The French proposed to the Makhzen to have M. Brochet, engineer of public works in Tunis, appointed for the same job in Morocco by the Diplomatic Body. (3) Though England had her candidate for the job, the English engineer of Gibraltar Harbour, the F. O. could not decide to support this candidature before consulting the French Ambassador. (4) Hearing then from him about the French candidature, they instructed Lowther to co-operate with his French colleague at the proper time in support of the French candidate. (5)

For Spain, it was a matter of importance to secure the post of second engineer for a Spaniard. Spanish interests in Morocco necessitated such a nomination especially if the first post were to be given to a Frenchman. She repeatedly approached Germany in order to obtain the German vote in the selection. On the other hand, Spain suggested that three engineers would be appointed, a

---

1) *Tschirschky to Rome & Saint - Petersbourg, 7 March 1907,* (*G. A.*) *M* 25/5, *Bd I. F 394.*

2) *Lascelles to Grey, 29 March 1907, F. O. 371 / 285.*

3) *Rosen to A. Amt, 16 Feb. 1907,* (*G. A.*) *M.* 25/5, *Bd. I F.* 388.

4) *F. O. 371/93, no.* 24831, 21 *July* 1906.

5) *F. O. to Lowther,* 26 *July* 1906, *F. O.* 371/93 - 86.

that, in view of this post, the French Government had a candidate and hoped that the British Government would support them [1]. Rosen was aware that France, by securing a French candidate for that post, would gain an undue influence. So Germany endeavoured to prevent the selection of a Frenchman and preferred a neutral candidate [2].The French, on the other hand, were fully aware of the German attitude long before that decision, [3] but they hoped that with the support of England and that of the Portuguese, Russian, Spanish, and probably also of the Italian Legations, the French candidature would obtain a majority of votes [4].

So, when the Belgian Representative at Tangier wished to nominate a Belgian engineer, Rosen was quick to support the nomination. [5] The German Government tended to support the Belgian candidate, Klaas, engineer of bridges and roads, and Tschirschky instructed his ambassadors at Rome and at Saint - Petersbourg to approach the Governments there : the Italian in order to back the German point of view, and the Russian to suggest to the French the preference of a neutral

---

1) F. O. to Lowther, 26 July, 1906, F.O. 371 / 93 - 86.

2) Tschirschky to Rosen & Radolin, 15 May 1907, (G. A.), M 25 / 5, Bd. 2, F. 549.

3) White to Grey, 3 Aug. 1906, F. O. 371 / 93 - 140.

4) Ibid.

5) Rosen to A. Amt, 24 Dec. 1906, (G. A.) M. 25/5, Bd. I, F. 375.

Body was concerned, as to the execution of the stipulations of the Act of Algeciras, Rosen found himself in a minority [1], so Germany had to " get round " the Act of Algêciras, thus contradicting the oft repeated protestations and declarations of Bulow regarding the bona fides of the German Government in carrying out its stipulations.

After the death of Rottenberg, the German engineer in the service of the Sultan, in March 1906, Rosen suggested to his Government that Tottenberg should be replaced by a German engineer. The new candidate, so Rosen stated, ought not to be the same engineer that the Act of Algeciras stipulated, but he would work in harmony with him or he could at least control him. This would do much for the German economic interests in Morocco [2]. At the same time Germany intimated to the French and Italian Ambassadors that she was not interested in the Engineer Question [3].

For France, it was very important that a French engineer should secure that post. On 23 July 1906, the French Ambassador informed the British Government

---

1) Lowther to Regnault, 22 *Jan.* 1907, *F O.* 371/281 - 19.

2) Rosen wrote, " . . . Andererseits ist es aber fur unsere wirtschaftlichen Interessen von vielleicht ausschlaggebender Bedeutung, dass ein Deutscher Ingenieur dem Machsen in allen die offentlichen Arbeiten betreffenden Fragen seiner Rat zu erteilen in der lage ist. Ein solcher Ingenieur wurde nicht identisch sein mit dem von der Konferenzacte in Aussicht genommen Sachverstandigen, konnte aber mit diesem zusammenwirken, oder ihn wenigstens kontrollieren..." See : Rosen to A. Amt, 11 July 1906 (G. A.), M. 1, Bd. II, F. 3887.

3) Rosen to A. Amt. 13 May 1907 (G. A.) M. 25 / 5, Bd. 2, F. 548.

Dr. Rosen, on the other hand, viewed the Tschudi question, of course, differently. He explained that when he was at the Court the Sultan had asked him whether the German Government could supply a successor to Rottenberg, an engineer who had been for some years in the Moroccan Government service and who had recently died, and Von Tachudi had been selected (1). Dr. Rosen had also suggested that the Sultan should name another officer to assist Von Tschudi to which the Sultan had agreed. The German Government considered that the appointment of the two officers in question in no way whatever encroached on the letter or the spirit of the Act of Algeciras and considered that the Sultan had a perfect right to select any foreign officer for any purpose he wished (2).

Apart from that of Tschudi, another question provided the Powers with further ground for rivalry and quarrel. This was the question of the appointment of an engineer for public works in Morocco. Article 66 of the General Act of Algeciras stipulated that " all draft schemes, specifications . . . shall be prepared by a competent engineer appointed with the concurrence of the Diplomatic Body by the Shereefian Government . . . "

As a matter of fact, in all cases where the Diplomatic

---

to the spirit and to some extent to the letter of the Act of Algeciras. See Art. 66 of the Act, D. D. F., 2ème. S., T. 9 (2), No. 631, P 840.

1) So Rosen tole Lowther. See ; Lowther, to Grey, 16 *Jan* 1907, *F O.* 371 / 281-14

2) Ibid.

expected arrival of Major Tschudi at Fez [1].

This of course aroused the suspicion of the French regardless of the fact that it was supposed that Tschudi was to serve other than purely military purposes [2]. The German press explained that Major Von Tschudi and captain Wolff, his assistant, had entered the service of the Sultan as technical experts whose advice might be taken with regard to contracts and plans for public works, and that they had not been engaged as instructors for the Sultan's army [3]. In the opinion of the Paris press the appointment of Major von Tschudi seemed to be contrary to the intentions of the Algeciras Conference. In the introduction of the necessary measures, so a French paper alleged, the Sultan should deal with Europe as a whole and not with the individual Powers [4]. Regnault, the French Minister at Tangier, was of the opinion that, in the question of Tschudi the demand of the "open door" for which Germany had made such a stand at Algeciras had been completely forgotten [5]. He was afraid that Tschudi would be allowed to exercise his influence in the matter of the "Reglement" for tenders for public works, the preparations of whose plans were to be made at Fez [6].

---

1) Lowther to Grey, 22 Jan, 1907, F. O. 371/281 - 19.

2) See, Minutes of Mr. Crowe to Tel. 81, F O. 371 / 94. (28 Nov.)

3) Norddeutsche, 14 Jan. 1907, Bertie to Grey, 16 Jan. 1907. F O. 371 / 281 - 27.

4) Ibid.

5) Lowther to Grey, 22 Jan. 1907, F. O. 371 / 281 - 19.

6) According to this accusation the appointment of Tschudi would be contrary =

dangerous opponent of any French energetic policy in Morocco.

Rosen's visit to Fez, which created a very favourable impression in the Court [1], showed that the Germans would take the place that the English had formerly held as confidential advisers to the Sultan. Recieved by the Sultan in a private audience, Rosen delivered the presents that he had brought to the Sultan, amongst which was a small wireless apparatus. The German Minister, having the great advantage of being able to converse in Arabic, created a very favourable impression upon the Sultan and Visirs and it was believed that any advice he might tender would doubtless have much weight both with the Sultan and with the Court officially [2]. During these negociations Rosen could easily secure the Sultan's consent to form an engineer corps managed by Tschudi who was to return to Fez to maintain his function [3]. The news of Tschudi's appointment for duty at Fez was further confirmed by Lascelles from Berlin [4]. The Sultan then directed the Minister of War to send 300 soldiers from Tangier to form an engineer corps and it was significant that this order should have been given just at the moment of the

---

1) Resen had private interviews with the Sultan who praised him and appreciated " his great liking for the Mohammedans and their religion of which he showed a good knowledge. " See : White to Crowe, 27 Oct. 1906, F. O. 371 / 94 Private letter.

2) So White believed. See : White to Grey, 13 Oct. 1906, F. O. 371 / 93 - 194.

3) So Maclean told White. See : White to Grey, 28 Nov. 1906, F. O. 371 / 94 — Tel. 81.

4) Lascelles to Grey, 21 *Dec. 1906, F. O. 371 / 94 - 405.*

After his consent to the Act, Abdul-Aziz expressed his wish to see the German Minister as soon as possible (1). The journey was made ostensibly with the sole object of presenting his credentials (2) but Germany, by the quick appearance of her Representative at the Shereefian Court, aimed at convincing the Sultan that she would not abandon him and at persuading him to proceed firmly, adopting the Moroccan policy agreed upon between them (3). After the Kaiser had been consulted about the presents to be given to the Sultan, (4) Rosen left Tangier for Fez on 22 September. The composition of the mission was significant, as it included Lieutenant-Colonel Hueber, who had visited Algeria some two years earlier and had made a special study of the whole frontiers with Morocco, and Captain Tschudi, the wireless telegraph and balooning expert (5). Dr. Rosen, the German Minister at Tangier, possessed the talents that rendered his job easy and fairly successful. Having spent his boyhood in Palestine he had learnt Arabic as his mother tongue. Besides, his manner was one that appealed to the Sultan and the Moors. Although he always endeavoured to give the impression that his attitude was extremely moderate and conciliatory, he proved to be a

---

1) *Vassel to Rosen, 29 June 1906, (G.A.), M. 2, Bd. 11,F.* 3889; *Rosen to Tschirschky, 11 July* 1906, *Ibid, F* 3887.

2) *White to Grey,* 25 *Aug,* 1906, *F O.* 371/93. *Tel.* 36.

3) *Tschirschky to William,* 7 *Aug.* 1906, *(G. A) M.* 2, *Bd* 11 *F. 3904.*

4) *See : Tschirschky to Jennisch,* 22 *Aug. 1906, Ibid. F. 3932.*

5) *White to Grey, 22 Sept. 1906, F. O. 371/93 - 174 ; White to Grey, 28 Nov. 1906 F. O.* 371 / 94 - *Tel. 81.*

German instructors for his army. This happened e.g. in April 1905. (1) He also told Dr. Vassel, the German Vice-Consul at Fez, that the police reform for the coast cities stipulated by the Act of Algeciras was not enough, and expressed the wish that reform might be also introduced to the towns of the interior and suggested to Vassel that he required German officers for the purpose. (2) The German Government, on the other hand, were reluctant to respond to the Sultan's wishes (3) or to be involved in such difficulties that would allow them to appear injuring the Algeciras resolutions.

Although Germany joined the Powers in inforcing the Act of Algeciras upon the Sultan regardless of the fact that his delegates to the Conference refused to sign it and that he was resolved not to consent to it, the Sultan still viewed the Germans as supporters and advisers. This was no doubt the inevitable consequence of the Kaiser's action after the Anglo-French Agreements of 1904. The support of Germany, open and concealed, for the Makhzen, in the reign of Abdul-Aziz or Abdul Hafeed, was an important reason for the failure of the French policy in Morocco. (4) Whether in 1905 or afterwards this support was always the winning card in the Sultan's hands against the French.

---

1) *See. Vassel to Rosen, 29 June 19.6, (German Archives), M. 2, Bd 11 F.* 3889

2) *Ibid.*

3) *Rosen to A. Amt. 11 July, 1906 (Aufzeichnung fur Seine Exzellenz den Herrn Staatssekretar), M. 2, Bd. 11, F.* 3887

4) *Tardieu, Le Mystère d'Agadir, P. 7*

Government wished also to reserve the right to put a French officer in the Englishman's place later on. (1)

The Sultan, on the other hand, seemed reluctant to employ an English officer. On hearing this, the British Government intended to get Maclean, the British instructor of the Sultan's army and the Sultan's friend through whom the British once possessed a predominent influence in Morocco, to take any steps he could to persuade the Sultan to take an English officer, though it was not a matter that the English could press officially. (2) It was, however, in the interest of the French to do so. Nevertheless, Kaid Maclean was told by the Sultan that he would apply for an instructor as soon as he required one, but he did not need one at the time. (3).

As to the German Government, they considered that the Sultan had a perfect right to select any foreign officer for any purpose he wished. Yet they did not raise any question of a German cavalry instructor being selected to fill the place of Major Ogilvy. (4) They contemplated to have a solid footing in the Court by other means. As a matter of fact, the Sultan of Morocco had expressed his wish several times to the Germans to have

---

1) *Minutes by E. Barrington on* 9 *Aug* 1906, *F. O.* 371/93. 27437.

2) *Grey stated " We should do what we can and I do not see what else we can do " See minutes to White's private letter to Crowe of* 3 *Aug.* 1906.(*received at the F. O. on 10 Sep.) F O.* 371/93. 30770 .

3) *White to Grey,* 29 *Sep.* 1906 *F. O.* 371/93.32875-47 *(Tel)*

4) *So declared Rosen to Lowther. See : Lowther to Grey,* 16 *Jan.* 1907, *F. O.* 371/281. 2650-14

French officer but he might try and appoint a German if he saw hesitation from the part of the English. [1] White, the British representative at Tangier, even feared that in the case of the French supporting the candidature of an English officer, this would do more harm than good. It was also feared that the Sultan, on hearing the British objections to a loan for him, would declare that an English officer was not required. [2]

Although the French Chargé d'Affaires at Tangier shared Lowther his view, the French were preparing a candidate of their own [3] , and the British Minister at Tangier was subsequently instructed by Grey, the British Foreign Minister, to support the French candidate. [4] But in order to avoid the risk of a German officer being appointed by the Sultan, the French Government suddenly changed their mind on the question, [5] and thus left selection to the British Government. Cambon, the French Ambassador in London, notifying the British Government that his Govrnment had withdrawn their intention to propose a French officer, expressed the hope that it should be made clear to the Sultan that France and England were entirely agreed on the matter. [6] The French

1) *Lowther to Grey, 3 July 1906, F. O. 371/93.26083- 27 (Tel.)*

2) *White to Crowe, 3 Aug. 1906, F. O. 371/93. 30770. Private letter.*

3) *See minutes of Grey, F O. 371/93. (Tel. 27.)*

4) *Grey to white, 3 Aug. 1906, F. O. 371/93, 26625 - Tel. 11.*

5) *White to Grey, 4 Aug. 1906, F. O. 371/93 26674 - Tel. 29.*

6) *Instructions in this sense were sent to White. See : Grey to White, 13 Aug. 1906, F. O 371/93 27437. Tel. 12.*

are the questions of the major posts of the Empire, public works, monopolies and concessions. And, amongst the posts affair, which we now intend to deal with, the questions of Ogilvy, Tschudi and the public works Engineer are the most significant.

After almost three and a half years in the employment of the Sultan, Major Ogilvy, the British cavalry instructor in the Moorish army, died of typhoid fever. The very brief terms of the note of regret which Guebbas, the Moorish Minister of War, sent to Lowther, the British Minister at Tangier, did not, however, fully express the Minister's appreciation of the services of the Major. (1) The desire of Guebbas, not to commit himself too far, revealed the wishes of the Makhzen (2) regarding Major Ogilvy's successor. It was clear that they had not yet decided to appoint an English instructor. The Makhzen's attitude towards the English was now chiefly due to the "Entente Cordiale". According to the stipulations of this Anglo-French agreement of 1904 the English had to retire in Morocco in favour of the French. The "Entente" thus alienated the Sultan from both the French and the English (3) to the benefit of the Germans in Morocco.

Lowther, the British Minister at Tangier, believed that the Sultan would object to the appointment of a

---

1) Lowther to Grey, 19 July 1906, F. O. 371/93, 25908-132.

2) The Moorish Government.

3) See : Sobhy, op. cit. pp 242-245.

provided various fields for that conflict. Efforts have been made by interested scholars to reveal particulars of the conflict, but a complete study covering the field has not been accomplished. In 1929 Anderson's study on " The First Moroccan Crisis, 1904 - 1906 " appeared. Although the work is an excellent introduction to the subject yet the absence at that time of adequate French, British and German documents makes it merely a basis for special further study. The same view could be applied to Ima Christina's good work "The Agadir Crisis" which was published in 1940, surveying the incidents involved in the crisis and analysing the motives of the various actors. The author also believed that the publication of all French documents relating to the crisis would probably clarify some details, but no startling disclosures would result. But in fact the recent publication of this perfect collection of French published documents " Documents Diplomatiques Français " [1], the filming of the pre - 1920 files of the German Archives from 1952 and the recent releasing of the British F. O. files covering the period paved the way for further emiment and startling facts. In my study on the " Moroccan Question, 1906 - 1909 " accomplished in 1962 [2] the questions of the State Bank of Morocco, the police mandate and mining concessions are dealt with. Other less important yet significant aspects of conflict are still worthy of attention. Among those

---

1) *Vol. 4, 2nd. Series of the collection ex was published in 1950.*

2) *Ph D. Thesis, University of London.*

controlled and run by the Powers [1] and every aspect of public life was to be submitted to the censorship of the Diplomatic Corps at Tangier. [2] But in effect the Act made the action of France the dominant factor. [3] The Algeciras Agreements, however, misled those who were unacquainted with France's secret agreements with Italy in 1900 and 1902 [4] and with Great Britain and Spain in 1904 and 1905. [5]

Yet for the French the Act of Algeciras, hindered by the persisting opposition of Germany could not be sufficient to the requirement of what the French called "the Moroccan obligations of France" [6]. Though the Act of 1906 represented " le moindre mal ", sacrificed nothing, reserved everything and gave France the maximum that she could reach, yet the French then realized that it could not respond to the demands of the situation. [7]

So the conflict of the Powers in Morocco, mainly between France and Germany, had to go on, and the application of the Act and the explanation of its articles

---

1) *See Chapter 3 of the Act.*

2) *See Arts. 108, 110, 114, 117 and 120, of the Act.*

3) *French Morocco, F O. Handbooks, No. 108, p. 25.*

4) *Franco-Italian accord concerning Tripoli and Morocco in the form of letters exchanged between Barrère and Visconti-Venosta on 14-16 Dec. 1900, and between Prinetti and Barrère on 10 - 11 July, 1902, See : D. D. F, 2ème. S., T 2, No. 329 & Annexes 1, 2, 3 & 4 (Secret) ; Norman Palmer, and Howard Perkins, International Relations, p, 436.*

5) *See : D. D .F., 2ème S , T. 4, pp. 533 — 543; Ibid T. 5. p. 361 ; Sobhy, H., The Scramble for Morocco, pp 168 — 247. "Arabic" .*

6) *Tardieu, André, Le Mystère d'Agadir, Paris 1912, p. 5.*

7) *Ibid. p. 6.*

perity" in the Shereefian Empire. [1]

All the decisions arrived at conduced directly or indirectly to the aim of providing that all nationalities should have equal opportunities and should be on the same footing. The Act secured ample guarantees for the maintenance of the open door, not only in respect of economic liberty but also in regard to everything affecting commercial privileges and industrial enterprise in the Shereefian Empire.

Yet for the conflicting Powers, the Algeciras agreements provided only a temporary settlement and the postponement of a final solution, [2] though the reforms suggested stemmed from the exigencies of international relations and the interests of the Powers rather than those of Morocco. [3] In form, the act of Algeciras was explicitly intended to internationalize the solution of the Moroccan question. Some considered the Act as an international protection over Morocco. [4] France and Spain acquired a mandate to organize a police force in the ports, [5] a Moroccan state Bank was to be established,

---

1) See : "Acte générale de la Conférence internationale d'Algeciras", Doc. Dip. Fr., 2ème S., T. 9 (II), No 631. A translation of the Act may be found in other sources. See : Papers Relating to The Foreign Relations of The U. S A., 1906, (2) , p. 1459 ; The Status At Large of The U. S A , Vol. 34, p 2905 ; Morel, Morocco In Diplomacy, p. 252,

2) Trevelyan, Grey of Fallodon , 1940, p. 225 ; Bernard, Le Maroc, p. 334.

3) Anderson, the First Moroccan Crisis, p. 394 ; Ashmead-Bartlett, The passing of the Shereefian Empire, p 14 ; Fumchon, Le Maroc d'Algeciras A la Souveraineté Economique, p. 425.

4) Buel, Raymond, International Relations, p. 473.

5) See Art. 3 of the Act.

The Open Door in Morocco After Algeciras

Some Aspects of The Scramble for Influence And Interests

by Hassan Sobhy

The Conference of Algeciras was the outcome of a Franco - German political struggle in Morocco to which the Anglo-French " Entente " of April 4, 1904 had given rise : France trying to obtain predominent influence in the country, and Germany endeavouring to prevent it. A conference was therefore called ostensibly for the purpose of preparing a series of " reforms " for Morocco to be recommended to the Sultan (1), or more precisely, to be enforced upon him.

On 7 April, 1906, a general act was arrived at in Algeciras, a small town in southern Spain which the historical gathering made famous. The act was signed by the delegates of the Powers participating in the Conference : Austria-Hungary, Belgium, France, Germany, Great Britain, Italy, the Netherlands, Portugal, Russia, Spain, Sweden, and the U. S. A. The act recognized the sovereignty and independence of the Sultan of Morocco, the intergrity of his lands and the economic liberty in the country, and it regulated the relations between Morocco and the interested Powers with regard to the introduction of reforms designed to promote " order, peace and pros-

---

1) Lowther to Grey, 8 Feb. 1907, F.O. 371/281, (General, Report on Morocco.)

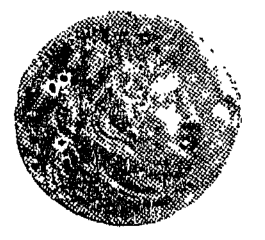


PUBLICATIONS OF

THE ARCHEOLOGICAL SOCIETY OF ALEXANDRIA

ARCHAEOLOGICAL & HISTORICAL STUDIES

3



Contents :

1969

رقــم الايداع بدار الكتب ٢٢٥٧ لسنة ١٩٦٩

Publications of the Archaeological Society of Alexandria may be obtained from its office : 6, Rue Mahmoud Moukhtar Alexandria - Tel. 20650

PUBLICATIONS OF

THE ARCHEOLOGICAL SOCIETY OF ALEXANDRIA

ARCHAEOLOGICAL & HISTORICAL STUDIES

3



1969